مزحة حمار

عزيز نيسين



مجموعة قصصية
مختارة

نقلها عن التركية

جمال دورمش

مزحة حمار

عزيز نيسين

مزحة حمار

قصص مختارة

ترجمة
جمال دورمش

منشورات دار علاء الدين

• **مزحة حمار.**

• تأليف: **عزيز نيسين.**

• ترجمة: **جمال دورمش.**

• لوحة الغلاف: **موفق قات**، تنفيذ الغلاف: **بشير الصبح.**

• الطبعة الرابعة 2010.

• عدد النسخ 1000 نسخة.

• تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-269-4

مزحة حمار

عيناه تستندان على عظمتي وجنتيه البارزتين، وحاجباه كثان ملتصقان ببعضهما..

جبهته عريضة مندفعة إلى الأمام قدر إصبعين، ورأسه الكبير الضخم منغرز في صدره، يعني لا عنق له بتاتاً، أسماله الرثة تكشف عن جسده المغطى بالشعر القاسي كما وجهه.

يداه طويلتان، عندما يسبلهما تصل أطراف أصابعه إلى ركبتيه، قصير القامة، ضخم، عريض المنكبين، مثل الفرس.

جريمته... ما هي؟.. جرائمه كثيرة، امتص دم السيدة التي خنقها، ذبح زوجين وقطعهما ببلطة وملحّهما، عمل قاطع طريق.

علق ثلاثة سائقين على الأشجار المغروسة على جانب الطريق.

تعرفك على جرائم وجنايات «جيلو» لا يجلب لك سوى الصداع، هذا الرجل لم يفعل شيئاً سوى القتل، لم يأكل ولم يشرب، عندما اقترف كل هذه الجنايات لم يرف له جفن، بل حتى أنه لم يكن يشعر أن ما يقوم به هو عملية قتل وإجرام، بل مهنة امتهنها، وبذلك كان يعيش حياته الطبيعية، كما العامل الذي يعمل والموظف الذي يؤدي وظيفته، مثل جميع الذين يقومون بأعمالهم الطبيعية كذلك كان «جيلو» يشعر أنه يقوم بعمل عادي، لذلك لم يعِ بأي شكل من الأشكال لمَ ألقي القبض عليه وزج في السجن.

حال خروجه من هنا بالسلامة، سيعود لمزاولة ما اعتاد عليه.

طالت محاكمته واستمرت لمدة أربع سنوات، والسبب في ذلك هو تكشّف جرائم سبق أن ارتكبها، وفي نهاية المطاف حكم عليه بالإعدام.

لم يفهم القرار «جيلو» الذي اتخذته المحكمة، حتى أنه لم يفهم الكلمات التي تضمنتها العبارة الطويلة التي قرأها القاضي، بل طرب لها، إذ ظن أن هذه الكلمات الجميلة المنمقة التي لم يفهمها ما هي إلا قرار خلاصه.

بعد صدور القرار تم ترحيله إلى السجن، وهناك راح يحدث زملاءه الذين تحلقوا حوله متلهفين لسماع أخباره.

- أخيراً انتهت المشكلة العويصة يا أصدقاء، تحدث القاضي كثيراً لكن أي حديث؟.. إما أن يكون الحديث بهذا الشكل أو لا.. عقبى عليكم.

قرار حكم «جيلو» غير قابل للطعن، لذلك فهو ليس بحاجة إلى تحويله إلى محكمة التمييز، بل يتم تحويله أوتوماتيكياً ليصادق عليه المستشار. كان فرحه وسعادته لا توصفان، بعدما صادق المستشار على القرار المذكور، حتى أنه رد على كل من أعلمه:

- «جيلو» تم التصديق، تم التصديق.

- نعم كل شيء يسير على ما يرام، ها قد تم التصديق على قرار الحكم، هذا يعني أنني تخلصت تماماً.

عندما صادق المجلس بعد مصادقة المستشار على القرار المذكور، كاد «جيلو» أن يطير من الفرح:

- يا أخي حتى السجناء كانوا يساعدونني في ذلك ليرضى الله عليهم جميعاً، بعد الآن لن يستطيع أحدٌ أن يفسد أمري، أليس كذلك.

يجيبه الأخوة:

- نعم يا «جيلو» لا أحد سيفسد ذلك.

في نهاية المطاف صادق رئيس الجمهورية على القرار، وبهذه المصادقة راح «جيلو» يتباهى من العناية التي حظي بها:

- تخلصت تماماً، نعم تخلصت! الجميع من أنصاري، الحاكم، والسجان، ورئيس الجمهورية حتى.

ثمة شعور بالقلق بات ينتابه مع مرور الأيام لعدم إطلاق سراحه، متسائلاً: وهل هناك جهة أخرى يجب أن تصادق على هذا القرار؟. لا، لا يوجد. إذاً لمَ لم يطلق سراحه حتى الآن؟.

هذا القلق بدأ يتعاظم يومياً، وهو ينتظر إخلاء سبيله.

ذات يوم نقله السجانون من زنزانته إلى منفردة حجرية، هكذا كانوا يعاملون المحكومين بالإعدام. إلا أن هذه النقلة أسعدت «جيلو» كثيراً حتى أنه قال للحارس الذي أقفل باب المنفردة:

- نعم يا أخي، هنا مكاني الحقيقي وليس بين المجرمين والجناة.

ثم أردف محدثاً نفسه:

- لا شك أنهم سيمنحونني قسطاً من الراحة، نعم، قبل إطلاق سراح السجين يهتمون به، ويعتنون به، ومن ثم يخرجونه.

لذلك أخذ بمضي جل وقته في النوم.

ذات صباح، وبينما كانت الشمس تنبلج، فُتح الباب ليدخل الإمام، ومعه مدير السجن والمدعي العام، وثلة من الحراس، ومع دخولهم ثمة بارقة سعادة شعت في بؤبؤي عينيه الصغيرتين، هذا يعني أنهم أتوا ليقولوا له «هيا يا «جيلو» مع السلامة» كم هم أناس رائعون.

«جيلو» الواثق من إطلاق سراحه قال لهم:

- تفضلوا اجلسوا يا سادة.

رد عليه الإمام:

- ليغفر الله خطاياك.

و من ثم طلب من «جيلو» ترديد الأدعية وإعلان التوبة.

راح «جيلو» يحاكي حاله:

- هكذا دعوت إلى الله وتبت، وبذلك أصبحت نظيفاً طاهراً، ولم يبق سوى إطلاق سراحي.

طلب منه رئيس السجانين أن يسامحهم.

كم هم رائعون، ها نحن نتصافح ونتسامح قبل الفراق، حتى أنه خجل من نفسه لأنه ظن سوءاً برئيس السجن.

كاد رئيس السجن أن يذرف الدموع، بينما ارتسمت أمارات الحزن على وجوه السجانين، لأن «جيلو» سيخرج من السجن.

أجابهم «جيلو» بصوت حزين.

- مسامح أنت يا أخي، وأنتم أيضاً سامحوني، ومن ثم توجه بالحديث إلى المدعي العام ومدير السجن والإمام.

- سنلتقي قريباً إن شاء الله.

هذه الكلمات أغضبت المدعي العام. ومدير السجن والإمام، حتى أنهم لم يشاطروه أمنيته.

قام سجانان بإمساك «جيلو» من تحت إبطيه، إيه! إما أن يكون الوداع بهذا الشكل أو لا. من عتبة باب الزنزانة قام رجلان من الدرك باستلامه، فرح «جيلو» كثيراً عندما رأى الدركيين المسلحين، إذ قال متمتماً

«ليرضى الله عليهما، لقد أتيا كي يحمياني من أعدائي».

طار «جيلو» من الفرح عندما ألبساه الثياب الخاصة بالإعدام، نعم هكذا يجب أن يكون، فأسماله الرثة لا تسر صديقاً ولا عدواً:

- هذا رائع، ألبسوني القفطان الجديد والآن سيطلقون سراحي.

نعم ألبسوه الملابس البيضاء، وبجانبه رجال الدرك ليدافعوا عنه، هذا يعني أن كل شيء على ما يرام.

عندما أركبوه في السيارة قال لهم:

- والله لقد أتعبتكم في ذلك، لا داعي للسيارة.

هذا يعني أنهم لن يحملّوه مشقة السير على قدميه، بل سينقلونه بالسيارة، أوصدوا باب السيارة المصفحة، لتنطلق.

عندما فتحوا باب السيارة، اندهش «جيلو» عندما وجد نفسه في ساحة كبيرة، وقال:

- الله، الله كل هؤلاء أتوا لاستقبالي، الآن سيطلقون سراحي وسط هذه الجموع الغفيرة.

دفع رجال الدرك «جيلو» على عمود خشبي منتصب وسط الساحة. رفعوه إلى ذلك المكان، هذا يعني أنه سينظم له احتفال، لذلك قال «جيلو» بينه وبين نفسه مبتسماً:

- لقد أنفقوا الكثير من أجلي.

قرب العمود الخشبي كرسي يمكن الصعود عليه بوساطة درجتين، رفعوا «جيلو» على الكرسي، هل كان سيلقي كلمة من على الكرسي أمام هذه الجموع، واضح أنه سيقوم بذلك لكن لمَ ربطوا يديه، يبدو أنهم عرفوا أنه مرتعش وقد يتسبب بمكروه، بعد قليل سيقولون له:

- مع السلامة يا «جيلو».

إلا أنهم سألوه ما هو طلبك الأخير.

يبدو أنهم يطلبون منه إلقاء كلمة.

- لا، لن أستطيع التحدث أمام هذا الحشد الكبير.

- أليس لك أي طلب.

- والله إنكم تحرجونني، وماذا سأتمنى أكثر مما فعلتم.

لم يفهم «جيلو» لمَ وضعوا الحبل المدهون بالزيت على عنقه.

و بدفعة واحدة من قدم منفذ الحكم للكرسي التصق الحبل تماماً على عنق «جيلو» قال له:

- توقف «ولك» أنا لا أحب المزاح.

كان سيقول له ما هذا المزاح الثقيل، مزاح الحمار عند الصباح، إلا أن صوته تجمد في حنجرته.

عند ابتلاع الحبة

لكل إنسان هواية مختلفة، وأنا أهوى مشاهدة المسرح.. مشاهدة المسرح براعة وحذلقة، حتى أنها بالنسبة لي أصعب بكثير من كتابة نصها، وتمثيلها على خشبة المسرح، وهناك بعض المسرحيات يبدو للإنسان أن مشاهدتها أصعب بكثير من كتابتها وتقديمها على الخشبة.

و لكي لا يبدو الموضوع أنه مباهاة، ففي الحقيقة أنني مشاهد جيد للمسرح. إذا ما مت، وقام صديق أو صديقان بالكتابة عن مناقبي وكتبوا «كان المرحوم واحداً من أهم مشاهدي المسرح في بلادنا» فإن روحي ستنتعش.

المسرح معبد. لكن تعال واقنع من يقوم بقيادة اوركسترا السعال في المسرح، أو ذلك الذي لا يستطيع أن يجلس دون أن يأكل الفستق أثناء مشاهدة العرض المسرحي، أو ذلك الذي يطقطق وهو يقشر الكستناء المشوية، أو عندما يقوم المشاهدون بتقويم مستوى المسرحية بصوت عالٍ أثناء العرض.

كان يقدم على خشبة مسرح أنقرة الحكومي أحد النصوص المسرحية وهو لكاتب صديق مهم ، بعد مكان المسرح ليس مشكلة بالنسبة إلى المشاهد الجاد، ومن أجل مشاهدة هذا العرض المسرحي سافرت من استنبول إلى أنقرة، وللاستفادة من الوقت، سافرت بالقطار ليلاً، لم أستطع النوم بسبب اهتزاز القطار، عدا عن ذلك ثمة رائحة كريهة تنبعث من ذلك المسافر الذي يشاركني المقصورة المخصصة للنوم،

رائحة شنكليش مختلطة برائحة تفاح متفسخ، كانت تثلج في الخارج، وحاولت فتح النافذة، لكن شريكي في المقصورة لم يسمح لي، لذا ألقيت بنفسي خارج المقصورة كي لا أختنق من هذه الرائحة السامة المجهولة. وبما أن مقصورة الإطعام تغلق بعد الثانية عشرة ليلاً، لذلك أمضيت ليلتي حتى الصباح وأنا أهتز مع اهتزاز القطار في الممر. وفي الصباح الباكر وصلت إلى أنقرة.

فرح صديقي الكاتب لمجيئي من استنبول لمشاهدة مسرحيته. مساء ذلك اليوم كنت سأشاهد المسرحية لأعود إلى استنبول صباح اليوم التالي.

عندما وطئت قدماي أرض أنقرة، شعرت بحرقة في حلقي، وبدأت أسعل، أي سعال هذا.. سأختنق من شدته.. على الأغلب تعرضت للبرد أثناء وجودي في ممر القطار، لا يمكن أن أشرح كيف كنت أسعل، في كل سعلة تتفكك رئتاي وكأن قطعاً منهما ستخرج من فمي، كنت أحاول عدم السعال لكنني لم أستطع السيطرة على نفسي.

منذ البداية قلت لكم إن للمسرح قدسيته، ليس السعال، بل التنفس بصوت عالٍ مسموع غير مرغوب فيه، والآن لو ذهبت لأشاهد عرض المسرحية - مسرحية صديقي - وسعلت هناك لأصابني الخزي، ليتها كانتا سعلتين وحسب، بل سعلات متتابعة دون توقف. حلقي يلتهب وصدري يؤلمني، هي يا الله، ماذا أفعل! يجب أن أجد علاجاً لهذا السعال حتى المساء.. ومن ناحية أخرى أثقل النعاس جفوني، لأنني لم أنم طوال الرحلة، ذهبت إلى الفندق كي أنام لكن عبثاً، فالسعال يحرمني من النوم، كنت أسعل سعالاً جافاً، فلو ذهبت ودخلت المسرح لما فُهِم كلام أحدٍ من الممثلين، لأن سعالي كان يصدر صوتاً غليظاً من قصبتي الهوائية يشبه صوت البوق، مثل صفير البخار أو عواء الذئب، صوت مبحوح متحشرج، مزدوج المستوى.

لا يمكنني البقاء في أنقرة أكثر من ليلة واحدة، فلا بد من عودتي في اليوم التالي.

قلت للأصدقاء بأنه يلزمني طبيب متخصص بالسعال!.. خذوني فوراً إلى اختصاصي بالسعال!.

سلموا، لم يقصروا بتاتاً، أخذوني. وصف الطبيب لي دواءً:

- تناول من هذا الشراب، سيتوقف السعال مباشرة وكأنه لم يكن.

يجب تناول ملعقة كبيرة كل ساعتين، وبما أنه يحتوي على مادة مخدرة لذلك لا يمكن زيادة الجرعة.

ملعقة اثنتان، ثلاث ملاعق، لكن دون فائدة بتاتاً، حتى أن السعال أخذ يزداد حدة، أسندت فوهة زجاجة الدواء إلى فمي وسكبت كل محتوياتها وكأنني أشرب النبيذ، أجهزت على كل ما فيها من دواء لكن دون فائدة، بل بالعكس لقد ازداد السعال حدة، كيف ذلك! كلما سعلت شعرت كأن عيني ستخرجان من محجريهما، وفتقي المنتفخ سينفجر مثل البالون.

أخشى أن يكون الأصدقاء قد مزحوا معي، واشتروا لي دواءً لزيادة السعال بدلاً من تسكينه وتهدئته.

تذكرت أحد أصدقائي من الأطباء. استقليت سيارة «تكسي» وانطلقت نحوه:

- رجاءً يا صديقي، إنني أموت من السعال، وهذا المساء سأذهب إلى المسرح، أعطني دواءً يوقف السعال لغاية الساعة التاسعة مساءً.

كتب لي وصفةً، والدواء من الحبوب.

- دواء فيه أفيون، رجاءً لا تكثر منه، ابتلع حبتين، فتأثيره قوي جداً.

ابتلعت حبتين، ومن ثم جميع محتويات الأنبوبة لكن السعال لم يتوقف، ثم ابتلعت محتويات الأنبوبة الثانية، عند الساعة الثانية بدأ سعالي

يخف على فترات متباعدة، وبعد نصف ساعة توقف تماماً، أسعل في بعض الأحيان لكنني راض عن ذلك.

ذهبت إلى المسرح، صديقي الكاتب حجز لي مكاناً في المقدمة. جلست، ثمة خفقان بدأ في قلبي، قد يكون بسبب الدواء. عندما جلست على المقعد شعرت بثقل يتملكني كما الكابوس، قد يكون سببه دفء المكان، أم أنني أمضيت الليل دون أن تغمض عيناي، أو من التعب لا أدري.. فتحت الستارة وبدأ جفناي بالانسدال، وكأن كل رمش من رموشي شد إلى حجر، حاولت جاهداً فتح عيني لكن دون فائدة، تفوه ه ه!.. تأتي من استنبول إلى أنقرة لتنام بدلاً من مشاهدة العرض المسرحي... إنها نذالة ما بعدها نذالة، أخرجت من قبة سترتي مجموعة إبر، رحت أوخز بها فخذي كي أصحو، لكن دون فائدة، ليست الإبر، حتى لو ثقبوني بخنجر فلن أستفيد.. ابتلعت الكثير من الحبوب الأفيونية كي أوقف السعال والنتيجة واضحة. كلما حاولت التركيز واستجماع انتباهي أجد نفسي مشتتاً تماماً، لا أستطيع رؤية أحد على خشبة المسرح وإن رأيت أحداً فإن رؤيتي غائمة مشوشة، وهكذا لم أفهم ما كان يدور بينهم من حوار.

بينما كنت أكافح كفاحاً غير مأمونٍ بيني وبين نفسي كي لا أغفو وأنام، بدأ أحد الجالسين خلفي يأكل الفستق، تجمع كل الجن فوق رأسي:

- يا سيدي، المسرح مكان مقدس، هنا لا يمكن طقطقة الفستق..

قمت بهذه الحركة كي أصحو قليلاً، لكن دون فائدة، تشتت ثانية وغفوت، فزعت من نومي على صوت أحدهم وهو يتمخط مصدراً صوتاً يشبه بوق سيارة الإسعاف، وبين نصف نائم وصاحٍ أتذكر أنني قلت له:

- المسرح مكان مقدس... أو أشياء أخرى..

استسلمت للنوم عندما لاحظت أنني فقدت السيطرة على نفسي، أن أغمض عيني فهذه ليست مشكلة، لكن رأسي أخذ يرتطم بصدري، كنت أحاول تعديل جلستي من هذه الناحية لتلك لكن دون فائدة.

سمعت صوتاً بالقرب من أذني:

- لا تشرب، لا تشرب إنه مسموم، ولك لا تشرب!..

- وإذا بي أرى في منامي أنني أشرب شراباً للسعال. ولكي لا أظهر أن كلامي هذا هو أثناء نومي تابعت جملتي، دعه يا روحي فهو مفيد لتهدئة السعال.

ثمة ضحك أعادني إلى رشدي، وإذ بالممثل الذي على الخشبة يشرب شراباً مسموماً دون أن يدري والمشاهد الجالس بجانبي يحاول أن ينصحه، ولكي أستوضح الموقف قلت للرجل بجانبي:

- أرجوك، لا تتدخل بالممثلين، المسرح مكان مقدس.

بعد هذا الكلام لم أعد أذكر ما قلت، بعد لحظات تناهى إلى سمعي صوت سعال، صرخت:

- كفى أوقفوا سعالكم، ألا يمكن أن تصمتوا قليلاً.

رد علي الجالس على يساري:

- وأنت ألا تستطيع النوم في بيتكم.. هل انزعجت؟..

كنت سأرد عليه بما يليق به لكن عيني أغمضتا.. مع ذلك تمتمت ببعض الكلمات.

كنت أرى حلماً، في بعض الأحيان يختلط ما يجري على المسرح مع ما أرى من أحلام، استيقظت فجأة على صوت شخير:

- هذا معيب، لا يجوز الشخير في المسرح.. ونزل رأسي على صدري، ومن الضحكات والقهقهات التي سمعتها عرفت أنني استيقظت على صوت شخيري، بعد لحظة وكزني أحدهم:

- «شو في»؟

- أنت نائم

- لا لست نائماً بل أفكر مقوماً ما أرى

- لكنك تشخر يا سيدي.

آه لو ينتهي القسم الأول وتسدل الستارة فأخرج من المسرح، من المعيب مغادرة الصالة قبل إسدال الستارة.. لكنني لست واثقاً بقدرتي على الذهاب.. ومما يبدو فإنني لن أستطيع الوقوف على قدمي..

- هسسسس

- ماذا؟..

- إنك تشخر؟.

أسدلت الستارة وخرجت إلى البهو، أشعلت سيجارة لكي أبدد نعاسي، وجلست على الأريكة

- كيف وجدت العرض؟.

نظرت وإذ بي أمام كاتب النص، ماذا أقول الآن؟..

- لا يكون الحكم من القسم الأول.

- أي فصل الأول هذا؟.

- حاولت استجماع نفسي، نظرت، فإذا بي أشاهد أن كل واحد يأخذ معطفه وطاقيته من مكان تبديل الملابس ويخرج.

المسرحية المؤلفة من ثلاثة فصول قد انتهت

- يعني.. قصدت القول بأن المسرحية رائعة، ، الفصل الأول في غاية الروعة والفصل الأخير مدهش، أهنئكم..

أتذكر وصولي إلى الفندق ما بين الحلم وبين الواقع.

سمعت صوت جلبة وضجيج، نهضت وفتحت الباب، فوجئت برهط من الرجال..

- «شو في»؟

- عذراً قلقنا عليك لأنك لم تخرج من غرفتك منذ يومين

لا أتذكر كيف وصلت إلى الفندق، وكيف اندسست في فراشي، وهذا يعني أنني نمت هنا مدة يومين. كتبت تحليلاً ودراسة عن المسرحية بعدما قرأت أسماء الممثلين من برنامج المسرحية الذي كان في جيب سترتي، وصدرت الصحيفة.

بعد عودتي إلى استنبول، جاءتني رسالة من أنقرة من صديقي كاتب نص المسرحية يقول فيها أشكرك جزيل الشكر على انتقاداتك لمسرحيتي، لقد كتب الكثير في الصحف والمجلات لكن أحداً لم يفهم المسرحية كما فهمتها أنت، وبما أنك مدحتني فهذا يعني أنك على معرفة بما لم أقله، حقيقة إنك أحطت بروح النص، منذ زمن طويل لم يكتب أحد نقداً لمسرحية مثلما كتبت؟.

مستوى الرفاهية

مستوى الرفاه الاقتصادي لدينا عرقل زواجي، والحكاية باختصار على الشكل التالي، تعرفت على سيدة هي مدرسة تاريخ، جميلة، وغنية وذات سوية في المعرفة، لكنها بلغت الأربعين دون أن تتزوج والسبب في ذلك تقول:

- هل تعرف كيف كان يتم الزواج لدى الأتراك القدامى؟. حتى يتزوج رجل بامرأة لا بد من أن يكتشف اكتشافا، إما مصدر ماء لإقامة القبيلة أو كلأ لرعي المواشي، أو حيواناً لترويضه، وبما أنني صلت في التاريخ وجلت، لذ لك أرغب أن يكون لدى زوجي بعض الأشياء.

تعلقت بمدرسة التاريخ بشكل قوي وكانت هي مغرمة بي. في البداية قالت لي ابحث عن شقة صغيرة من غرفتين. بحثت لأشهر، لم أجد شقة تناسب ما أملك، الهواء بالمجان ودون دفعة سلف لمدة سنة ، قلت لها:

- لم أجد.

و بسبب حبها وغرامها الزائد، لم تتفوه بكلمة واحدة غير أن مشاعرها قد جُرحت. ذات يوم انقطع الماء، ولم يأتِ السقاء، لذلك قالت لي هيا اذهب وأتني بزجاجة ماء، وأنا بدوري مثل أجدادنا الأتراك هرعت إلى الخارج، يومها كان صيفاً، لم أجد زجاجة ماء للشرب، فعدت منزعجاً خجلاً:

- لم أجد يا حبيبتي.

انعقد حاجباها، ولم تقل شيئاً.

المواسير في بيتها مثقوبة، وهي بحاجة إلى سمكري، والأواني يلزمها تبييض أيضاً، لذلك قالت لي:

- هيا لحّم البواري وبيّض الأواني.

زرت جميع السمكرية وجميع مبيضي الأواني النحاسية، توسلت إليهم، لكن عبثاً، قلت لهم

«سعادتي ستنهار بسببكم» قالوا لي:

- إن مواد اللحام والتبييض غير متوفرة فماذا نفعل؟.

انزعجت حبيبتي كثيراً عندما قلت لها:

- لا يوجد.

ثم أعطتني درساً قاسياً حول كيف كان يتزوج قدامى الأتراك

- هيا اذهب وأتني بمائتين وخمسين غراماً من الجبن الأبيض

ثانية، وبكل جدية، خرجت من البيت مثل الأبطال، بحثت في كل استنبول، دخلت جميع الدكاكين، وكلما سألت أحدهم عن الجبن الأبيض نظر إلي مندهشاً، وسخر مني. عدت منزعجاً وقلت لها:

- لا يوجد.

بعدما لقنتني زوجة المستقبل درساً طويلاً حول الصفحات الذهبية لتاريخنا قالت:

- لا يوجد في البيت ذرة سكر، هيا اذهب واشترِ لنا سكراً.، هجمت نحو الباب بجسارة مُستمدة من أجدادنا الذين حركوا سيوفهم وسط أوربا، وكلما سألت أحداً، رمقني بنظرات كأنني شتمته، في المساء عندما عدت إليها مجرجراً أذيال الخيبة قلت:

- لا يوجد.

كان في الغرفة عدد كبير ممن أعرف وممن لا أعرف، حبيبتي تمسك بيدها عدداً كبيراً من الصحف، قالت لي أمام الضيوف:

- طلبت منك غازا، قلت لي لا يوجد، طلبت منك ملحاً، فقلت لي مفقود، والفحم لم تجده، وحطباً لم تجد.

طأطأت رأسي قليلاً وقلت:

- كيف لي أن أجد شيئاً وهو غير متوفر، ثم هذه صفة الله فهو يخرج المعلوم من الغيب.

قالت لي أمام الجميع:

- اقرأ هذه الصحيفة.

قرأت حيث أشارت زوجة المستقبل بصوت عالٍ:

«خص السيد الوزير صحيفتنا بتصريح حول مسألة الفحم قال فيه:

تم تأمين جميع احتياجات الأخوة المواطنين من مادة الفحم لهذا الشتاء وأكثر حتى»

- اقرأ هذه الصحيفة أيضا، هذا ما قالته حبيبتي مدرسة التاريخ.

قرأت صحيفة أخرى ناولتني إياها: ظروف الحياة تتحسن يوماً بعد يوم، فالأسعار تهبط وترتفع سوية رفاهية المواطن.

- واقرأ هذه الكتابة أيضاً..

قرأت:

«هناك بعض المخربين ممن يحاولون شق وحدتنا الوطنية بإطلاق عبارات أن الماء مفقود والبن غير موجود، كذلك السكر، وبذلك يختلقون صعوبات وهمية، هؤلاء الخونة...»

صرخت زوجة المستقبل «كفى! والآن قل لي من الذي يكذب أهؤلاء الناس المهمون أو أنت؟»

وقعت في ورطة، فلو قلت أمام الجميع أنهم يكذبون بوجود هذا العدد من الشهود، لاستطاعوا إصدار حكم بحقي بالسجن لمدة خمسمائة سنة، ولو قلت أنا أكذب لانقطع أملي في الزواج.

قالت زوجة المستقبل:

- أنا أستند إلى وقائع تاريخية، هيا أجبني!.

قلت لها «أنا من يكذب».

و خرجت مغتاظاً. هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها من توافق على الزواج مني، وها أنذا أفقدها بسبب ارتفاع مستوى رفاهية شعبنا.

سم الفئران

مجموعة من الدكاكين ممتدة من سكة الترمواي حتى فناء الجامع.

بقاليتنا «بقالية القناعة» هي المكان السادس إذا بدأنا العد من الجامع، بجانبنا مطعم وبجانبه بائع «كفتة» وبعده بائع حلويات، بعدنا مباشرة وعلى نفس الصف مطعم شعبي «كل حتى تشبع».

اشترينا محل البقالة بثمن بخس أشبه بالمجان، بثمانية آلاف ليرة. عندما قمت أنا وشريكي بعد استكمال كل الإجراءات بتسديد كامل المبلغ لصاحب المحل، في هذه اللحظة بالذات قال متنفساً الصعداء:

- أوه... أرحتموني.

توجست من كلماته، وما فهمت ما يقصد.

دخلت أنا وشريكي الدكان، فيما بعد تقاطر الجيران للتهنئة، أول القادمين كان إسماعيل أفندي اللحام:

- فأل خير عليكم هذا الدكان.

- سلمت يا جار.

طلبنا الشاي، أثناء تبادل أطراف الحديث سألنا إسماعيل أفندي:

- عذراً، بكم اشتريتم هذا الدكان؟

- بثمانية آلاف.

- واه... واه!.

- لمَ يا جار... وماذا في ذلك هل المبلغ باهظ؟

- لا يا روحي، الخزائن في هذا المحل تساوي ثمانية آلاف.

- إذاً؟.

- على كلٍ ستفهمون فيما بعد.

بعد خروجه دخل مصطفى بائع «الكفتة» ومعه صبري صاحب المطعم:

- ليكن هذا المحل قدوم خير عليكم.

- شكراً يا جار.

دارت السجائر وأثناء الحديث سأل مصطفى بائع الكفتة:

- أعرف أنه معيب طرح هذا السؤال، بكم اشتريتم هذا المحل؟

- بثمانية آلاف..

- واه.. واه!!!!

- هل تخوزقنا يعني؟

- لاه.. فالشخص الذي باعكم إياه اشتراه بأربعة عشر ألف ليرة..

- حسناً، لكن ألا يمكن أن نساوم؟

من بعدهما أتى لتهنئتنا أيوب الخضري وعبد الله العشي الزعفراني ومعهما صديق الحلواني و «بكير» أفندي، وهم بدورهم تأوهوا وتواهوهوا «واه واه» وذهبوا دون أن يفصحوا بأي شكل من الأشكال عن سبب التأوه والتوهوه.

شعر شريكي بانزعاجي لذلك قال لي:

- هم أصحاب المهن هكذا، أحدهم لا يساند الآخر، كل هدفهم تيئيسنا كي يشتروا الدكان بسعر أرخص.

عند المساء أغلقنا الدكان وعاد كلٌ منا إلى بيته، في صباح اليوم التالي مر علي شريكي ليصطحبني معه إلى الدكان، أدخلت المفتاح بالقفل ورفعت غلق الدكان، دخل شريكي مسمياً بالله، وعندما وطئت قدمه عتبة الدكان أطلق صيحة «أيواه»! دخلت خلفه وأطلقت ذات الصيحة، الدكان مقلوب رأساً على عقب، البسطرمة متناثرة في كل أرجاء الدكان، والسجق كذلك، أما الزيتون فقد اختلط بالجبن، والصابون موزع في كل مكان،

هرعت نحو صندوق النقود، وجدته في مكانه، وبينما كنت أنا وشريكي نشد شعرنا ونلطم رأسينا تجمع الجوار من الباعة وهم يسخرون ضاحكين:

- ولك كفاكما صراخاً وندباً. قال الحلواني - هذه مصيبة جميع الدكاكين، وأنتما ستعتادان مثلنا على ذلك.

في البداية ظننت أن لصاً دخل الدكان، لكن كيف سيدخل اللص؟ إذ لا كسر ولا خلع وجميع النقود في الصندوق. قمت أنا وشريكي بإعادة ترتيب الدكان، عند المساء أجرينا حساباتنا وأحكمنا إغلاق الدكان وكلٌ ذهب إلى بيته. صباح اليوم التالي كانت نفس الفوضى بانتظارنا.

كل يوم على هذا الحال. أخشى أن تكون هذه الدكاكين مسكونة بالعفاريت؟ لكن شريكي لا يؤمن لا بالعفاريت ولا بالجن ولا بالشياطين حتى.

كنت سأذهب إلى مخفر الشرطة كي أشرح لهم همي إلا أن صبري صاحب المطعم استوقفني قائلاً:

- تعال وانظر فمطعمي على هذا الحال أيضاً.

دخلنا المطعم، جميع أنواع الأطعمة متناثرة في أرجاء المطعم.

- ولم يحدث ذلك؟.

- تعال لأريك السبب في دكانكم.

دخلنا الدكان، وأرانا ثمة كريات سوداء فوق قطع الجبن.

- أرأيت إنها آثار براز فئران.

على قطعة جبن القشقوان آثار تشبه آثار المنشار يظهر كأنه آثار أسنان الفئران.

فهمنا وعرفنا السبب، أحدهم اشترى هذا الدكان بأربعين ألف ليرة عندما كان فارغاً افتتح في حينه محل بقالة، وعندما عجز عن مقاومة الفئران باع البقالة بثلاثين ألف ليرة، وذاك باعها بخمسة وعشرين، ومن واحدٍ لآخر حتى اشتريناها.

قال شريكي:

- لكن ألم تستطيعوا مكافحة الفئران؟

يومها اشترينا أربع مصائد ووضعناها في أرجاء الدكان قبل إغلاقه.

صباح اليوم التالي سمى شريكي بالله قبل أن يرفع الغلق ويفتح الباب ومع دخوله أطلق صرخة:

- يا أماه..

و قفز خارجاً، قدمه محشورة بين أسنان المصيدة، تبين أن الفئران دفعت المصيدة إلى عتبة الباب وبذلك نصبت لنا شركاً. قدم شريكي تنزف بغزارة. وبصعوبة بالغة استطعنا انتزاع قدمه من المصيدة الكبيرة، وبعد تضميدها عند الصيدلي عدنا إلى الدكان إلا أننا لم نجد مصيدة واحدة، وعلى ما يبدو فإن الفئران سحبت كل المصائد.

عند المساء أتانا زبون طويل القامة طالباً صابوناً معطراً، مددت يدي إلى الرف الذي عليه هذا النوع من الصابون فلم أصل، قال الزبون «انتظر» مد يده وصرخ:

- آه لقد انتهيت.

خرج الزبون راكضاً من الألم ويده محشورة حتى الرسغ بين أسنان المصيدة.. خرجنا لنستطلع الأمر، رأيناه يركض مسرعاً ومعه المصيدة... لا ندري ما الذي جرى للمصيدة، إذ أننا لم نعد نرى ذلك الزبون بعدها أبداً.

فكرنا ملياً، بحثنا وتمحصنا إلا إننا لم نعرف كيف استطاعت الفئران رفع المصيدة الكبيرة ووضعها على الرف.

عندما وجدنا أن هذه المصائد لا تجدي نفعاً، رحنا نبحث عن قطط متخصصة باصطياد الفئران، فعلمنا أنها موجودة في إحدى الأماكن، فاتجهنا إلى هناك والتقينا بصاحبها الذي قال:

- استطاعت قطتي تمزيق كلبين كبيرين من نوع «بولوغ». ما شاء الله! هذه ليست قطة بل حيوان مفترس، إنها لا تقضي على الفئران وحسب،

بل إنها تفترس التماسيح أيضاً، لذا فهي ستقضي على سلالة الفئران في ليلة واحدة، وهي مصدر عيش هذا الرجل لأنه يقوم بتأجيرها، عرضها علينا بخمسين ليرة لليلة الواحدة، عندما حاولت مفاصلته على السعر قال لي:

- لو زججت بها في مصارعة التيوس لكسبت أكثر من ذلك بكثير، لكنني وبدافع إنساني أؤجرها كي تقضي على الفئران، قطتي هذه إذا أدخلتها في مكانٍ ما لمدة ساعة فقط لما تجرأت الفئران على دخوله لمدة عشر سنوات، ليست قطتي، بل رائحتها تكفي.

كانت هذه القطة بلا مبالغة بحجم الجحش، عندما شاهدتها ظننت أن الرجل قد خدعنا، اصطاد نمراً وتحايل علينا كي يقنعنا أنه قطة.

أدخلنا القطة المتوحشة بمساعدة صاحبها قفصاً وحملناه إلى الدكان، وأطلقناها داخله بحضور صاحبها.

حضرنا صباح اليوم التالي ومعنا صاحب القطة وقبل أن نرفع غلق الدكان قال لنا:

احذروا من فتح الغلق المفاجئ!، لأدخل أولاً وإلا ستقفز قطتي عليكم.

اجتمع الجوار على باب الدكان مستطلعين النتائج.

دخل الرجل الدكان، وبعد برهة سمعنا صوت نحيب يصدر من الداخل، دخلنا وإذ بصاحب القطة يبكي وعيناه لا تذرفان بل تسكبان الدموع وبيده ذيل قطة، وهذا يدل على أن الفئران قد التهمت القطة ولم تبق منها سوى الذيل، ولو التهمته لوقعنا في ورطة ولما عرفنا أي شيء عن مصير القطة.

كان يبكي ويندب ويقول:

- آه.. لقد انتهى مستقبلي، كيف سأعيل أولادي وأنفق عليهم.

أخذ جيراننا يقهقهون ضاحكين، لأنهم جربوها قبل ذلك. إذ إن صاحب المطعم الشعبي أطلق ذات ليلة عشرين قطة جائعة في مطعمه، بعدما قطع عنهم الطعام لمدة يومين، يومها قال لجواره:

- ستنظرون غداً فهذه القطط لن تبقي فأراً واحداً.

في صباح اليوم التالي عندما فتح مطعمه، لم يجد من القطط العشرين قطة واحدة ولا ذيلاً واحداً حتى.

جميع جهودنا التي انصبت لمكافحة الفئران باءت بالفشل، لذلك قررنا استخدام السموم وبالفعل ذهبت إلى الصيدلي وقلت له:

- رجاءً اعطني سماً للفئران بحيث يكون مفعوله قوياً جداً، وكل فأرٍ يتذوقه يهلك في مكانه.

- لا تهتم سأعطيك سماً لو نظرت الفئران إليه من بعيد لتسممت أعينها.

ناولني علبة بداخلها وصفة حول كيفية استخدامه.

في الدكان فتحنا العلبة ورحت أنا وشريكي نقرأ ما كتب في الوصفة..

العدو الأول للفئران!..

سم قوي يقضي على الفئران من جذورها.

انتبه!

لا تلمسه بيدك!

طريقة الاستخدام

تحتوي العلبة على حبات قمح مسمومة، استخدم ملقط الشعر أو ملقط الفحم أثناء إخراج حبات القمح، ووزعها في الأماكن التي اعتادت الفئران دخولها وتخلص من الأدوات المستخدمة، لكن لا ترمها في البحر لأنها ستسبب تسمم الأسماك، حبة واحدة تكفي للقضاء على عشرين فأراً.

أخرجنا عشر حبات قمح بواسطة ملقط الفحم، حذرني شريكي:

- لا تتنفس! إياك أن تتسمم.

أمسكنا تنفسنا ونثرنا حبات القمح في أرجاء الدكان، ثم وضعنا علبة السم في الخزانة وأقفلنا عليها، وحفرنا حفرة بعيدة عن مصدر النار قدر مترين وطمرنا الملقط.

في صباح اليوم التالي لاحظنا كأن زلزالاً ضرب الدكان، أكياس الفاصولياء والرز والسكر الكبيرة مرمية على الأرض، خزانات الزيت مقلوبة وكل ما تحتويه الرفوف متناثر على الأرض، الخزانة التي أخفينا فيها علبة السم مفتوحة ولم يبق فيها حبة قمح واحدة.

أتى الجيران وكلهم عابس، صديق الحلواني قال جاداً:

- لقد أظهر السم تأثيره.

- أي تأثير هذا؟!

- انظر إلى الفئران التي التهمت حبات القمح المسمومة كيف خرجت عن طورها وجن جنونها، انظر ما حدث.

- لم أتعجب من أي شيء، لكن كيف استطاعت الفئران قلب خزانات الزيت؟!

- يا رجل هذه ليست فئراناً بل...

اتجهت مسرعاً إلى الصيدلية وشرحت للصيدلي ما حدث، أجابني:

- هاه.. توضح الأمر سأعطيك سماً أقوى وأشد فتكاً وإذا لم يقض عليها يجب البحث عن وسيلة أخرى.

أخذت علبة السم وعدت إلى الدكان وكان السم من ماركة «لزغينا»، قرأنا الوصفة التي كتب فيها:

«لزغينا» العدو الشرس لمكافحة الفئران!

هذا السم هو المستحضر الأمثل لمكافحة الفئران، تأثيره مضاعف، وهو محصول تجارب طويلة.

طريقة الاستخدام:

الخ، في البداية بتقديم الأطعمة المرغوبة للفئران، مثل الخبز والجبن والسجق والبسطرما وقطع اللحم.. الخ، وبعد فتح شهية الفئران يدهن مسحوق «لزغينا»، ويوضع في أماكن يكثر فيها تجول الفئران، عندما تجد نقصاً في هذا المسحوق المدهون تكون الفئران قد التهمته وماتت.

أثناء استخدام المسحوق يجب أخذ الحذر والحيطة من الأطفال والحيوانات الأليفة وفي حال التسمم يجب مراجعة الطبيب فوراً.

حسب الوصفة يجب تعويد الفئران بداية وكيف لنا ذلك بهذا الأسلوب اللائق، ففئراننا اعتادت منذ فترات طويلة على ذلك، مسحنا المعجون على قطع الخبز ووزعناها في أرجاء الدكان.

ماذا تتوقعون، هل فعل السم فعله؟

في اليوم التالي أتى الجوار ونحن نهم بفتح الدكان والجميع يقول:

- ليلة البارحة خلت محلاتنا من الفئران.

منذ ذلك اليوم لم تعد الفئران تزور محلاتهم، لأننا كلما وزعنا الخبز المدهون بالمسحوق كلما اجتمعت الفئران جميعها لدينا، وقد تبين أن هذه الفئران تحب التهام هذا النوع من السم، وكلما تناولته سمنت وازداد حجمها، لدرجة أننا لم نعد نستطيع تأمين الخبز لها.

أخذ الجيران يسددون أجوراً شهرية لنا كي نقوم بتغذية الفئران بالسم، لذلك أغلقنا الدكان وكنا مساء كل يوم نلقي عشرين رغيفاً من الخبز المدهون بمسحوق السم ونبتعد. مساء البارحة، بينما كنت ألقي الخبز لاحظت أن الفأر أصبح بحجم كلب المراعي وهذا ما يحيرنا.

- بعد ذلك لن نستطيع دخول الدكان، لنجعل فتحة خاصة في الباب كي نرمي الخبز منها. هذا ما قاله شريكي.

نحن الآن نرمي للفئران أربعين علبة سم مدهون على الخبز، أحجامها ما زالت بازدياد، وها نحن نكسب بفضل هذه الفئران.

داء إلقاء الطرفة

شيئان يزعجانني كثيراً، الأول شخص لا يعرف الضحك، والثاني شخص لا يعرف أن لا يضحك. في الوقت المناسب تبدؤون بقص الحكاية، وقبل أن تتفوه بكلمة واحدة تنطلق قهقهة مجلجلة،

- رجل هرم في جزيرة..

- قه، قهه، قهه «تبدأ القهقهة»!..

- هرم في جزيرة يعمل بائعاً للحمير..

- كه، كهه، كهه!

لا أستطيع التعبير عن شدة غيظي، لكن عندما سكتُ التصق حاجباي ببعضهما البعض،

و اكفهر وجهي. سألوني: وماذا بعد ذلك؟

- ماذا بعد ذلك يا سيدي.

- ها هاه، هاه!

قلت لهم:

- ليجازيكم الله وخرجت.

وكما أن هنالك أناساً لا يعرفون متى يجب أن يضحكوا أثناء قص الحكاية الساخرة، كذلك هنالك من لا يجيد الضحك بتاتاً. في زمان ما ومكان ما تستلهمون حكاية، تبدؤون بقصها هنالك من المستمعين من يرمقك بنظرات مثل نظرات التيس، يغيب بنظراته في اللاوعي وعندما تنتهي من الحكاية يسألك بجدية بالغة:

- إيه؟ وماذا بعد؟.. حسناً وماذا جرى؟..

في هذه اللحظة ليس أمامك إلا أن تفقع وتموت.

منذ فترة أعجبت كثيراً بالحكاية التي قرأتها في الجريدة، على الأغلب أنني ضحكت أثناء قراءتي، سألني السيد الجالس قبالتي:

- أعتقد أنك قرأت شيئاً شيقاً؟.

قلت له:

- نعم.

لا تعجبني الصداقة والمودة التي تبدأ مع بعض الأشخاص الذين يطلقون عبارة «الطقس يتحسن» في البواخر والقطارات، لكن الحكاية المنشورة في الجريدة كانت جميلة جداً لدرجة أنني بدأت بسردها حالما أصر علي الجالس قبالتي على ذلك:

يا سيدي، كان أحد الأشخاص مهووساً برواية النوادر مثل أولئك الذين ينعتونهم بمرضى داء إلقاء الحكايات الطريفة، يومها حفظ طرفة غير مسموعة تدور حول الصيد، وجلس مع مجموعة من أصدقائه ومعارفه، مريض رواية الطرائف، كان يتحين الفرصة كي يروي طرفته الجديدة، والأصدقاء العارفون بمرضه يفعلون كل ما في وسعهم كي لا يفتح فاه، كان المسكين يتخبط ويحوم في مكانه، مثل رجل محقون، لو حكى حكايته لارتاح.

لكن ما إن يبدأ حكايته بكلمة:

- ذات يوم..

كموا فمه..

- في حينه..

ابتكروا حديثاً أخر..

- أحد الأشخاص يا سيدي..

يسكتونه فوراً.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والجميع يتأهب للمغادرة، لم يستطع الرجل السيطرة على نفسه لذلك نهض وكأن بيده بارودة، راح يسدد وأطلق: - بوم - بوم - بوم..

بما أن الحديث يدور حول الصيد فسأحكي لكم، وبدأ يقص طرفته.

حكيت له هذه الحكاية التي قرأتها في الصحيفة، لكن الرجل لم يبتسم، حتى أن تعابير وجهه لم تتحرك، وعدا عن ذلك قال:

- إيه؟.. وماذا جرى بعد ذلك؟..

- لا شيء.. هذا كل ما في الأمر!..

- وماذا حكى الرجل؟..

كنت سأنفجر من شدة غيظي لذلك صرخت به:

- حكى عن حماقتك، وألقيت الصحيفة وخرجت.

و اندلعت قهقهة من ورائي، وكان الذي يقهقه هو نفسه الرجل الذي لم يكن وجهه يضحك للرغيف الساخن وبينما هو يضحك ويقهقه أشار لصديقه الواقف إلى حيث كنت جالساً:

- تعال واجلس هنا.؟..

لصحيفة، لكن الرجل لم يبتسم حتى أن تعابير وجهه لم تتحرك وعدا عن ذلك قال:

اروده عهم كي لا يفتح ف

حمداً لله على سلامتك يا سيادة المدير

ثمة حادثة سيارة ألمت بالمدير الإداري لمؤسسة يعمل فيها عدد كبير من الموظفين، الحادثة لم تكن كبيرة، ففي الصباح وهو ذاهب بسيارته من بيته إلى عمله صدمته من الخلف سيارة «ميكرو باص»، الواقية الخلفية تهشمت قليلاً، كان صاحب الميكرو على أتم الاستعداد لإصلاح الأعطال على نفقته الخاصة، وبما أن السيارة كانت مؤمنة لدى شركة التأمين فالشركة كانت كفيلة بإصلاح جميع الأضرار، وهكذا سارت جميع الأمور بشكل طبيعي.. إلا أن أعصاب المدير قد توترت بسبب الحادث، لذلك لم يذهب يومها إلى العمل. المدير الإداري كان شخصاً ذا نفوذ في مؤسسته، وكل من يعمل فيها يخشاه. لأن الترفيعات والترقيات والتنقلات والتسريحات وزيادة الأجور والرواتب كانت بيده.

تناهى خبر الحادث إلى المؤسسة منذ الصباح الباكر، لذلك كانت جميع الأحاديث والثرثرات تدور حول الحادث:

- ماذا جرى، ماذا؟... المدير الإداري تعرض لحادث سير؟
- نعم... تعرض لحادث سير.
- واخ واخ، وهل هو في المشفى الآن؟
- لا ، هو في البيت.

هذه الحادثة كانت الفرصة المناسبة للتقرب من المدير الإداري، بخاصة من قبل العاملات اللواتي ذرفن الدموع بسخاء، على الرغم من أنهن لم يفكرن بأنه سيعرف أن هذه الدموع كانت من أجله، لكنهن كن على

ثقة بأنه سيسمع بذلك، أمارات الحزن الشديد كانت بادية على وجوه جميع الموظفين الرجال، حتى أنهم كانوا يتبارون فيما بينهم بالحزن كي يظهروا مدى قربهم من المدير، فبقدر ما يمتلك الواحد منهم معلومات عن الحادث بقدر ما أظهر أنه مقرب منه..

- هل كانت الحادثة جدية وكبيرة؟.

راح كل مجيب على هذا السؤال يظهر أن لديه معلومات أكثر وأدق:

- ولك يا روحي أيعقل أن لا تكون الحادثة جدية، أيعقل أن يصطدم «ميكرو باص» كبير بسيارة المدير من الخلف وأن لا تكون جدية، نعم تصور؟..

استبدل الشخص الذي حصل على الجواب حافلة بدلاً من الميكرو باص الكبير:

- حادثة كبيرة، كبيرة، حافلة كبيرة، اعتلت سيارة المدير من الخلف.

كلما كانت لدى المرء معلومات أكثر كلما تبين أنه ذو حظوة لدى المدير، لذلك تغيرت الحافلة وأصبحت سيارة نقل كبيرة:

- بينما كان متجهاً بسيارته إلى المؤسسة وإذ بسيارة شاحنة كبيرة تصدم سيارته من الخلف.

- حسناً ولمَ لم ينقل إلى المشفى؟.

نظراً لعدم معرفته السبب، راحوا يتبادلون الشتائم، وكلما ارتفعت حدة الشتائم كلما أظهروا مدى قربهم من المدير:

- ولك ماذا تقول؟... أيعقل أن يتعرض المرء لحادثة بهذا الشكل وينقل إلى المشفى فوراً؟.

- نعم صدقت، لا بد من أن يستعيد عافيته قليلاً ومن ثم ينقل إلى المشفى أليس كذلك؟.

جميع الأعمال في المؤسسة كانت على وشك أن تتوقف، الجميع يتحدث عن الحادثة، لا أحد منهم يتجرأ أن يقول هيا دعوا الثرثرة وعودوا إلى أشغالكم، لأن ذلك كان سيظهر أن القائل لا علاقة له بالمدير.

ونظراً لرغبة البعض بإظهار تميز علاقته بالمدير عمد إلى محادثته بالهاتف:

- حمداً لله على سلامتكم يا سيدي، والله حزنا كثيراً، جميع الزملاء هنا متأثرون، أما محسوبكم فكنت في حالة ذهول، والله لا أدري ما أقوم به من فرط التأثر والحزن... رجاءً اهتموا بصحتكم يا سيدي، هل تحتاجون لأي شيء يا سيدي؟.

راحت المكالمات الهاتفية تنهال على بيت المدير، بداية تأثر المدير من كثرة هذه المكالمات، كان يعتبر أنهم يحبونه كثيراً، لكن هذا الشعور بدأ يتحول إلى انزعاج مع تكرار الإجابة على مكالمات الاطمئنان، حتى أنه بات يرد بإجابات غريبة:

- لا أشعر بشيء يا أفندي، وأنتم تهولون الأمر.

إلا أن المطمئنين لم يكونوا مقتنعين بأنه لم يصب بأذى فكانوا يقولون له:

- ما هذا الكلام يا سيدي، بنيتكم متينة ما شاء الله واستطعتم تجاوز ذلك، لو أن أحداً غيركم تعرض لهذه الحادثة لمات من فترة طويلة.

راحت أعصاب المدير تتوتر من كثرة مكالمات الاطمئنان:

- والله أنا سليم معافى ولا أشكو من شيء.

- أوه يا سيادة المدير ما هذا الكلام، أيعقل أن تصدمكم سيارة نقل كبيرة.. رجاءً، إياكم أن تنهضوا، رجاءً تمددوا...

هناك بين الموظفين من هم أذكى من أولئك الذي اطمأنوا على صحة المدير عبر الهاتف، إذ ذهبوا إلى بيته تاركين أعمالهم في المؤسسة، وبما أن الزيارة هي لمن تعرض لحادث سير، لذلك حمل البعض زهوراً

و البعض الأخر زجاجات عطر، ومنهم أكياس الفواكه.

على الرغم من أنه شرح لأوائل الزائرين بأنه لا يشكو من شيء، إلا أن أحدهم قال له:

- رجاءً يا سيادة المدير، بداية لا تظهر أعراض الحادث، من شعر في العظم، في البداية تهملونه، في البداية تظنون بأنكم لا تشكون من أي شيء، لكن آثار الحادث تظهر بعد فترة طويلة، فبعد أسبوع، أو عشرة أيام قد تظهر أثار الحادث.

و بهذه الطريقة راحوا يستشهدون بأمثلة، ليحمه الله، لو أن في جمجمته شُعراً لشعر به وبآلامه فيما بعد.

وقع الحادث صباح يوم الجمعة، وكان في نية المدير أن يمضي هذا اليوم في البيت، ويذهب إلى عمله يوم السبت، لكن من كثرة الهواتف التي تلقاها، وزيارات الاطمئنان عليه، ونظراً لكثرة الاهتمام، وجد أنه من المعيب الذهاب إلى العمل في اليوم التالي ويبدو بذلك عدم احترامه لمشاعر الآخرين، على كل حال بما أن يوم السبت نصف يوم عمل، لذلك كان سيمضي يومي السبت والأحد في البيت، ليذهب إلى العمل يوم الاثنين، إلا أن المتملقين، ولكي يتقربوا من المدير داوموا على زيارته يومي الجمعة والسبت، إضافة لذلك استدعوا طبيب المؤسسة للكشف عليه، لهذا السبب، ونظراً لاهتمام المحبين، بات المدير يخجل أن يقول إنه لا يشكو من أي شيء، طالما أنه لا يشكو من شيء إذاً لم كل هذا الاهتمام من الناس؟! لذلك، وكرمى لعيونهم ومن أجل خاطرهم، ولكي يكون زواره ممنونين،

بات يظهر لهم بأن ثمة بدايات ألم في القسم الأيمن من القفص الصدري، وعلى الأغلب ألماً عميقاً في لوح الكتف.

- ما حال عمودكم الفقري يا سيادة المدير؟.

- عمودي الفقري؟... آه لا تسألوني هكذا، كيف أقول لكم، شيء غريب وغير مفهوم.

- طبعاً يا سيدي، سيكون هكذا عندما تصدمك ناقلة كبيرة حمولتها عشرة أطنان.

أخذ أعداد الزوار يزداد، فكر بأن تجوله في الصالون بينهم غير صحيح، لذلك تمدد على الديوان مكتفياً بتغطية رجليه بغطاء صوفي، وفيما وجد أنه من الأفضل أن يتمدد على سريره، فبهذه الحالة لن يستطيع الذهاب إلى العمل يوم الاثنين، يوم الثلاثاء استلم برقية من مدير عام المؤسسة يهنئه فيها بالسلامة، يوم الأربعاء نشرت جميع الصحف خبراً بوصف هذه الحادثة من الأحداث المهمة. عندما أخذ الموضوع بهذه الجدية بات المدير الإداري لا يخرج من بيته، والطبيب الذي عاينه أعطاه تقريراً طبياً لمدة خمسة عشر يوماً.

بعد هذه المدة لم يستطع المدير مغادرة فراشه، لم يفهم المدير هل هو اعتاد على التمارض، أم هو مرض حقيقي ألم به، لكن العبارة التي كان يكررها «ما اشتكيت من شيء لكنهم دفعوني كي أكون مريضاً».

هل وقع تحت تأثير ما أسمعوه؟.

لا بل العكس أخذ المدير ينحل وأصاب جسمه الهزال، انقطع عن الأكل والشرب، كان يحاول تلبية رغبة زواره المنافقين بقوله أشعر بألم في هذا المكان وتلك الناحية وفي النهاية بات يشعر بألم حقيقي في معدته وفي النهاية نقلوه إلى المشفى.

يقال أنه ستجرى له عملية جراحية خطيرة جداً ، البعض يظن أن مرضه بسبب الحادث، والبعض يظن أن هذا الرجل السليم المعافى دفعوه ليتمارض ومن ثم ليمرض فعلاً ، والبعض كان ينفي هذا الطرح وأن لا علاقة للحادث بمرضه، لكن أي منهم على حق، لا أحد يعرف.

تطورنا كثيراً

مواطني الأعزاء... مواطني المحترمين!..

إننا نشهد تطوراً ملحوظاً، وقد ينكر البعض هذا التطور، أو يحاول القيام بذلك. لكن هل يمكن إخفاء وجه الشمس وتغطيته بغربال؟ بالتأكيد لا، فطالما لا يمكن إخفاء وجه الشمس، إذن علينا أن لا نثق بمن يحاول إقناعنا بأننا لم نتطور، فمثلاً يلزمنا ثلاثة أيام وثلاث ساعات كي نصل من استنبول إلى هنا على متن القارب الذي يعمل على المازوت بينما كنا نقطع المسافة ذاتها بصعوبة على متن القارب الشراعي في ثلاثة أشهر.

مواطني الأعزاء، مواطني المحترمين!..

هل يمكن أن يتجاهل تطورنا هذا أو يغفله؟. المسافة التي كنا نقطعها في ثلاثة أشهر بتنا نقطعها في ثلاثة أيام، وماذا قبل اكتشاف القوارب الشراعية؟.. عند العودة إلى كتب التاريخ نجد أن هذه المسافة كانت تقطع عبر البر بثلاث سنوات، هل يمكن مقارنة ثلاث سنوات مع ثلاثة أيام؟.

و الآن لنتناول مسألة الطرقات..

مواطني المحترمين، ها هي الأمور أمام أنظاركم، انظروا إلى هذه الطرقات المعبدة هل كانت كذلك سابقاً؟. حتى أنها كانت بلا أرصفة.. ولو توغلنا في القدم، لوجدنا أن الأزقة الترابية لم تكن موجودة أيضاً، وقبل ذلك لم يعرف الإنسان الطريق بتاتاً، ويقولون إننا لم نتطور!، كيف يمكن

أن نتطور لو لم نشق الطرقات، لو لا ذلك لاضطررنا إلى تسلق الجبال والالتفاف حول الوديان.

انظروا إلى المصابيح الكهربائية، إنها موزعة في كل مكان وموجودة في كل بيت، لكن هل كانت الطاقة الكهربائية مستخدمة قبل مئة عام؟.. كنا نستخدم مصابيح «الكاز»، وحتى هذه المصابيح لم تكن معروفة قبل ثلاثمائة سنة، فالإنسان كان ينير عتمة لياليه بالشموع، وماذا قبل ألف سنة؟.. إن الإنسان لم يعرف إمكانية استخدام زيوت الراتنج في الإضاءة، يقولون إننا لم نتطور، بالله عليكم قولوا طالما أننا لم نتطور فماذا تعني هذه الكهرباء، وهذه الطرق وهذه السفن؟.. لو لم نكتشف الكهرباء ولو بقينا في الظلمة، وكل منا ارتطم وشُج رأسه هل كان هذا أفضل؟..

و لو لم نشتر هذه السفن لما استطعنا اختصار كل هذه المسافات.

كيفما نظرتم تجدون آثار التطور والتقدم في البلاد، انظروا إلى السيارات تجدون الفورد والشفروليه كذلك البويك والكاديلاك، إذاً ولله الحمد سيارات من كل الموديلات، حسناً، طالما أنكم تقولون بأننا لم نتطور فكيف تم كل ذلك؟.. بالله عليكم حكموا ضمائركم هل كان لدينا كل هذه السيارات؟.. ثقوا تماماً أيها الأخوة المواطنون الأعزاء، أنه قبل خمسة آلاف سنة حتى العربات لم تكن تسير بشكل معقول!!، والثور هذا الذي نعرفه لم يكن موجوداً قبل مئة ألف سنة.

إذن أين الإنصاف، وكيف وجد كل هذا؟..

طائراتنا تطير في أجوائنا، وسفننا تمخر عباب البحار، الراديو والهاتف وقدور الضغط أليس كل هذا تطوراً.

أيها المواطنون الأعزاء المحترمون جزيل الاحترام فلنأت الآن إلى ميدان التعليم، لنجد أن الإنجازات هنا مثل الإنجازات والتطور في جميع المجالات،

انظروا إلى الصحف والكتب المطبوعة، المطابع التي طبعتها لم تكن موجودة قبل خمسة آلاف سنة، وهل هذا شيء قليل لبلاد مثل بلادنا.. والمدارس؟.. لدينا مدارس لا تعد ولا تحصى، كذلك جامعاتنا، وبإذن الله سنحدث منها الكثير، هل كان لدينا هذا العدد من المدارس، هل كانت الجامعات معروفة قبل ألف سنة؟...

آنذاك لو ذكرتم الثلاجات لكنتم موضع سخرية، وهل هناك من يسخر الآن لو ذكرتم الثلاجات والمكانس الكهربائية؟.. كم هو مخيف هذا التطور، والآن لنتذكر تطورنا في مجال الصحة..

مواطني الأعزاء!!..

قبل ثلاثمائة عام لم تكن الأمصال المضادة للكوليرا، أطفالنا لم نكن نحصنهم ضد هذه الأمراض، أطباؤنا آنذاك لم يكن لديهم لا شغل ولا عمل، بينما هم الآن يعملون كل ما في وسعهم كي يلقحوا الأطفال، قبل خمسمائة سنة لم تكن لدينا المطهرات.

من يعرف منكم فليقل، أرجوكم قولوا دون خجل هل كانت حبوب الأسبرين موجودة قبل أربعمائة سنة. لمَ العودة والتوغل في ذلك التاريخ، حتى قبل مئة عام لم نكن موجودين، هل كنا موجودين آنذاك؟.. ليقل أحد منكم إن كان موجوداً قبل مئتي عام؟.. ليقل دون أدنى خجل.. ليرفع يده والله وإني أعدكم بأنني لن أحاسبه ولن أقاضيه أمام المحاكم.

نعم لم يكن أي شيء في هذه البلاد، حتى هذه البلاد لم تكن موجودة آنذاك، قولوا هل كانت موجودة قبل ألفي عام؟!.

لأتحدث إليكم بأمور أهم من ذلك، حتى الإنسان لم يكن موجوداً قبل ألفي عام، أي إنسان، هذه الدنيا لم تكن موجودة قبل مليون سنة.. هل كانت موجودة؟.. قولوا لي؟!..

مواطني الأعزاء!!..

لـو بقينـا نعـيش داخـل الكـهـوف، هـل كنـا نلـبس الجـوارب؟ وهـل كانـت نـساؤنا سـترتدي ملابـس البحـر؟، هـل كنـا سـنعرف أكيـاس النايلون؟.

ليتحـدث المغرضـون عمـا يحلـو لهـم، المهـم أن لا تـصدقوهم وأن لا تثقوا بما يقولـون، بـالعكس تماماً فكمـا تشاهدون فإننا قد تطورنـا كثيراً.

هل هناك مثل الزواج

«كتبه رب أسرة سعيدة»

نهاراً لم يكن لديه متسع من الوقت لقراءة صحيفته أثناء العمل، تمدد على «الكنبة» وأمسك صحيفته، ثم راح يقرأ أحد الأخبار على الصفحة الأولى «مجموعة أطلنطا الشمالية...»

زوجته نديمة خانم جلست قبالته تفكر، وراحة كفها على وجنتها، فجأة سألته:

- كاظم!...

رفع كاظم عينيه عن الجريدة وسألها:

- «شو في»؟

- لا شيء..

أعاد كاظم قراءة الجملة من بدايتها، الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية.

- كاظم!..

- نعم يا سيدتي

عندما لم يسمع رداً أعاد كاظم قراءة الجملة «أطلنطا الشمالية...»

- كاظم!...

رد عليها دون أن يرفع رأسه عن الجريدة:

- قولي..

ثانية لا جواب، لذلك أعاد قراءة الجملة من جديد «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»

- كاظم!...

- نعم يا روحي تكلمي..

- أتحبني...

- إيه... ما هذا الكلام؟

- لو تحبني...

ثانية لا جواب... لذلك أردف كاظم قائلاً:

- إيه.. وماذا سيكون لو أحبك؟..

ثم أعاد قراءة الخبر الذي لم يفهمه «تمثيل الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»..

- كاظم!..

- ولك ما بك؟.

- لا شيء.

- طالما أنه لا شيء، دعيني إذن أتم قراءة الصحيفة «ممثلي الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية..»

- كاظم!..

- بحق السماء قولي ماذا تريدين؟.

- «هيك بيحكوا» الناس؟

- حسن، كيف «بيحكوا»؟.

- لا أعرف!..

مجموعة دول أطلنطا الشمالية...

- كاظم!..

أجابها بالكلام المعسول:

- قولي يا صغيرتي.. تكلمي يا روحي

- أتعرف أنك تسخر مني الآن؟!..

- الله الله، من يسخر منك؟
- كاظم، أنت لا تحبني!..
- يا روحي وكيف عرفت ذلك؟..
- لو كنت تحبني، لما فعلت هكذا!
- وكيف علي أن أفعل؟.
- هل المحب يفعل ذلك؟.
- قولي ماذا علي أن أقوم به..
- أنت لا تحبني!...
- لِكْ يا روحي أنا لم أفعل لك شيئاً!!
- طبعاً لم تفعل شيئاً..
أعاد كاظم قراءة الخبر الذي لم يفهم منه شيئاً «أطلنطا الشمالية»...
- كاظم انظر إلي!...
- قولي يا حياتي..
- أنت لا تحبني..
- أحبك.. ولمَ لا أحبك؟
- لا، أنت لا تحبني.
- والله وبالله أحبك!..
- والله وبالله لا تحبني..
- نديمتي، حياتي، يا سكرتي، لمَ لا أحبك. ما الذي يجبرني أن أخدعك وأقول لك أحبك؟
ثم راح يقرأ الخبر من جديد «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»
- كاظم.. أنت لا تقبلني..

يدع كاظم الصحيفة جانباً وينهض ليقف خلفها ليمسد شعرها ويحتضنها ويقبلها.

- لا ، أنت تقبلني مكرهاً..

يلصق كاظم شفتيه على شفتيها ويقبلها بحرارة، يجلس عند ركبتيها ويمسد شعرها، ومن ثم يعود إلى صحيفته «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»..

- أتحبني حقيقة؟

- أنا عديم الضمير أحبك، ليبلوني الله أحبك..

- إذن تعال وقبلني..

ثانية يدع كاظم أفندي الصحيفة جانباً ويحتضن زوجته ويقبلها..

- لا ، لا كاظم، أنت قطعاً لا تحبني.

- لتعم عيناي أحبك، ليشردني الله، ولأشحذ منك كسرة خبز إذا كنت لا أحبك.

- أنت لا تحبني، بل أنت تحب الراحة والسكينة والأمان، أنت تحبني لأنني أؤمن لك كل هذه، لأنني جميلة ولأنني امرأة جيدة.

- طبعاً يا زوجتي، شخصان يحبان بعضهما لغاية ما.

- حسناً.. ألم أقل لك؟ هذا يعني أنه لو لم يكن لدي كل ذلك لما أحببتني.

- يا روحي، وأنت أيضاً ألا تحبينني لأنني زوج جيد، وألبي كل احتياجاتك؟

- لا ، أنا أحب روحك، وأنت يجب أن تحب روحي حتى لو لم أتسم بكل هذه...

- أنا أحب روحك.

راح كاظم في هذه اللحظة بتمسيد ظهر القطة التي كانت تصول وتجول بينهما.

- انظر، كيف أنك تهتم بالقطة، «بسسسست» هيا انقلعي من هنا.

التفت كاظم نحو الشباك منزعجاً، وهو يداعب شعر زوجته.

- انظر حتى وأنت تمسدني، تنظر إلى مكان آخر.

كان كاظم أفندي يغمض عينيه وهو يقبل زوجته من شفتيها:

- لم تغمض عينيك هاه؟.. بالتأكيد إنك تستحضر في خيالك امرأة أخرى... أنت لا تحبني.

- لأتسول على بابك كسرة خبز، أحبك.

يجلس كاظم أفندي عند ركبتي زوجته واضعاً يده على ركبتها، وبالأخرى يقرأ جريدة.

«ممثلي الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»

- إن أحب المرء ألا يسأل ما بكِ، أمريضة أنت؟.

- هكذا دون مسببات أيعقل ذلك؟.

- إنني أموت، أشعر بغصة في أعماقي، كأن قطة تخرمش قلبي.

- أ أعطيك زجاجة العطر؟.

- المسألة ليست مسألة عطر

يدعو كاظم جارهم الطبيب القاطن في العمارة نفسها. فحص الطبيب الزوجة، ومثل كل مرة كتب لها وصفة دواء ثانية

- لا شيء يدعو للقلق.

يهرع كاظم بيك ويشتري الأدوية، ومن ثم يأخذ الصحيفة بيده «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»..

- كم الساعة؟.

- التاسعة إلا ربعاً...

- أشعر بالأرق... هيا خذني إلى دار السينما.

- حسناً يا صغيرتي..

تحضّرا للذهاب، يضع كاظم صحيفته في جيبه ويخرجان إلى الشارع.

- وهل سنسير على الرغم من حالتي هذه؟..

- ستنتشطين.

- لا يمكن أن أمشي.

يستقلان سيارة تكسي، ينزلان أمام إحدى دور السينما:

- أنا شاهدت هذا الفيلم اليوم.

يذهبان إلى دار أخرى، يبدأ الفيلم:

- واه كاظم، أنت نائم؟.

- آه... شو.. لا أعرف.. لم ألاحظ.

في فترة الاستراحة، يخرج كاظم صحيفته من جيبه «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»

- كاظم؟

- نعم؟

- هل تحبني؟

- أما قلت لك إنني أحبك!..

يدع الصحيفة جانباً ويتلفت يمنة ويسرة منزعجاً..

- لو أنك تحبني لما كانت نظراتك مشتتة هنا وهناك..

يبدأ القسم الثاني من الفيلم.

- قل لي صراحة هل أنت حقاً تحبني؟.

- ليقهرني الله إذا كنت لا أحبك..

- لا أصدق...

ينتهي الفيلم ويعودان إلى البيت، يندسان في الفراش، كاظم يشعل مصباحه الكهربائي الصغير ويتابع «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»..

- كاظم هل تحبني قدر ما أحبك؟.

- أحبك أكثر!

- أين.. لا يمكن.. أنا أحبك أكثر..

- يا روحي وهل هناك مقياس لهذا؟.

- لا ، لا ، مؤكد أنك لا تحبني.

كز كاظم بيك على أسنانه، وتقلصت عضلاته، وتداخلت عظيمات فكيه بشكل غير معروف، وصرخ بأعلى صوته:

- لا ، لا تحاول، لن أصدق.

صفع كاظم زوجته نديمة صفعتين على وجهها، ثم أمسكها بشعرها، وطرحها على الأرض، وراح يركلها وهو يصيح:

- أحبك.. أحبك! أفهمت الآن؟.

نهضت نديمة خانم وهي تولول، لتندس في الفراش، كانت تئن وهي تشهق:

- لن أعيش معك بعد الآن، لنفترق غداً.

عند الصباح تسأل:

- كاظم..

- قولي يا صغيرتي..

- أنت تحبني أليس كذلك؟.

- طبعاً أيعقل أن لا أحبك؟.

يذهب كاظم إلى دائرته، يبدأ بقراءة الخبر الذي لم يستطع قراءته البارحة «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية»

- كاظم بيك!

- نعم..

- أنت في صورة الأمر؟.

- منذ لحظات ونحن نتناقش ألم تسمعنا؟، أيهما أفضل الزواج أم العزوبية؟

- وهل هناك أفضل من الزواج؟.. عش دافئ، زوجة تحبك، تجلس بعد تناول العشاء مرتاحاً، وتقرأ صحيفتك «الدول المنضوية في مجموعة أطلنطا الشمالية».

بيصير خير إن شاء الله!..

ذات يوم من أيام الأسبوع، دخل شاب إلى مشفى الأمراض العقلية، سأل عند المدخل أحد العاملين وكان ذا رداء أبيض:

- أرغب في رؤية يوسف أفندي..

- أي منهم؟.

- يوسف أفندي «ميجيرلي»... يوسف أفندي من ميجير السفلى

- في أي قسم يعمل؟.

- هو لا يعمل، مريض.. يوسف أفندي من ميجير السفلى... قبل شهرين نقلوه إلى هنا.. رجل كبير في السن..

- يجب أن تأتي في اليوم المخصص للزيارات، لا يمكنك زيارة المريض عندما تشاء. لتأت في يوم الزيارة!

- أريد رئيس الأطباء...

- هو مشغول.

- والطبيب المناوب؟..

- ذاك هو، في المقابل...

أشار نحو طبيبين جالسين تحت شجرة الصنوبر في حديقة المشفى.

- أنا مدرس القرية، قالوا إن أحد المرضى من قريتنا لديكم في المشفى.. البارحة فقط علمت أنه هنا، اسمه يوسف أفندي، وبسبب انتهاء إجازتي فأنا مضطر للعودة هذا المساء، ألا أستطيع أن أراه؟.

أجابه أحد الأطباء المتمرنين:

- تفضل واجلس.

طبيب متمرن أخر مكور الشكل:

- هل هو قريبك؟..

- لا ، أنا من قرية أخرى، كنت مدرساً هناك، أدرس منذ سنتين في قرية أخرى، أنا أحب يوسف أفندي كثيراً.

طبيب متمرن آخر أشقر الشعر:

- عرفته، أليس ذا الوجه الأحمر؟.

- نعم، في السابعة والستين من العمر، لكن الشباب يبدو عليه.

- هو في قسمي، الآن موعد تناول الطعام، انتظر قليلاً، ومن ثم ندعوه إلى هنا لتلتقيا، إنه مريض هادئ.

- ما هو مرضه؟.

- لديه ثبات في التفكير. لا يتحدث.

- بتاتاً؟.

- يتكلم، لكنه يردد الكلمات ذاتها، كل ما يردده «بيصير خير إن شاء الله»!...

تنهد المدرس الشاب عميقاً، وثمة شعور انعكس من عينيه.

- فهمت الآن، مسكين يوسف أفندي، كان رجلاً شهماً، مسكين.

سأله الطبيب المتمرن ذو الهيئة المكورة:

- هل كانت لديه مشكلة ما؟.

- نعم، مشكلة كبيرة، مشكلته مشكلة «ميجير» كلها، ومشكلتنا جميعاً.

تدخل الطبيب المتمرن الأشقر قائلاً:

- حدثنا عنه فقد تساعدنا في علاجه.

تنهد المدرس ثانية وقال:

- لأشرح لكم، أتيت إلى قرية «ميجير» السفلى كي أدرّس فيها، قرية مؤلفة من ثمانين بيتاً... المكان الذي يسمونه مدرسة ما هو إلا غرفة طينية، أرضها تراب مرصوص.. عدا عن ذلك فإني سأقيم فيها وأعلم الأولاد فيها. لم يعلم أحد في القرية قبلي.. كنت أفكر ماذا أفعل؟ وبعد قدومي بخمسة عشر يوماً أتى يوسف أفندي، كان قد خرج من القرية عندما كان في الرابعة عشرة من العمر، عمل في استنبول لفترة من الزمن ثم خدم عسكريته، بعد ذلك عمل قبطاناً على متون سفن أجنبية. جاب الدنيا، وتعلم ثلاث لغات أجنبية وبقي في فرنسا وبريطانيا والنمسا فترة طويلة، بعد الأربعين من عمره غادر إلى أمريكا ليستوطن فيها، حصل على مبالغ كبيرة، عندما أقول كبيرة يعني لا يستهان بها.. فهو يستطيع شراء قرية «ميجير» السفلى بكل بيوتها وأطيانها وحيواناتها. عندما حن إلى بلاده، كان يقول سأعود إلى بلدي لأتزوج وأرزق بأطفال.. كبر يوسف أفندي في السن وهو يرغب في ذلك، لم يستطع احتمال نار الغربة، لذلك قال: على أقل تقدير لأعد إلى بلدي وأمت فيه، وبالفعل عاد إلى قريته. خمسون عاماً مرت على مغادرته، في البداية لم يعرفه أحد في القرية، لكن عندما تعرفوا عليه، لم يسعدوا بقدومه، وأكثر المنزعجين كان أقرباؤه، ظناً منهم أن سبب قدومه هو الحصول على نصيبه من إرث والده. لدى يوسف أفندي الكثير من الأموال، رجل طاف العالم، أنفق أموالاً طائلة كي يجعل من «ميجير» السفلى مثل تلك القرى التي زارها في أوربا وأمريكا... سر أهل القرية عندما راح يمنح هذا بعض النقود وذاك بعض الهدايا.. أعجبني يوسف أفندي كثيراً، رجل حيوي وعارف.. إنه لا يشبه الميجيريين بتاتاً. أنتم لا تعرفون أهل تلك القرية..

الطبيب الأشقر:

- شيء ممتع.

أردف المدرس قائلاً:

- لو لم يأت يوسف أفندي لجننت، أرسله الله ليمتلئ قلبي بالأمل. رجل يقظ، رجل هرم، لكنه نشيط مثل الجني، سألني «أين أولاد المدرسة؟»، قلت له «لا يوجد» على الرغم من إنني قلت له أنني ما زلت حديثاً هنا، لكن لا أحد يهتم بذلك، لا أحد يرسل أبناءه إلى المدرسة، قال لي يوسف أفندي «انظر يا أستاذ سنعمل يداً بيد، سنحيي هذه القرية» «أنا منذ البارحة أكثر عزماً وتصميماً» «هيا لنذهب إلى المقهى ونكلمهم» ذهبت بصحبة يوسف أفندي إلى المقهى، كان أغلبية رجال القرية هناك، ألقى يوسف أفندي التحية عليهم:

- مرحباً يا أغوات!..

سمع بعض التمتمات:

- مرحباً

البعض رد التحية بأن رفع يده نحو صدره، حاولت ضبط الوقت فوجدت أن رفع اليد على الصدر وإنزالها يستمر لمدة دقيقتين، جلس يوسف أفندي بجانب مراد أغا. ومن ثم راح يشرح للجميع ماذا تعني المدرسة، دعونا نعلم الأولاد، شرح وشرح ملياً، لكن دون أية ردة فعل من أحد، شرح يوسف أفندي ثانيةً، التفت نحو مراد أغا فرأيت نظرته شاردة، وكان هو من أهم الأشخاص في القرية.

سألهم يوسف أفندي:

- ماذا تقولون يا أغوات؟.

لا جواب

- وأنت يا مراد أغا ماذا تقول؟.

حدق مراد أغا ملياً:

- ماذا أقول يا يوسف أفندي «بيصير خير إن شاء الله»!..!...

بدأ يوسف أفندي الحديث من بدايته، يجب توسيع المدرسة، ويجب تخصيص غرفة لإقامة المعلم وإضافة صفين آخرين، وإعادة ترميم السطح. جميع نفقات هذه الأعمال كان سيدفعها يوسف أفندي من جيبه الخاص، والمطلوب من أهل القرية هو تقديم المساعدة باليد العاملة.

- ماذا تقولون يا أغوات؟.

لا جواب، عندها التفت نحو خضر القهوجي:

- ماذا تقول خضر أغا؟.

خضر أغا كان متراخياً في مكانه وعيناه ذابلتين:

- ماذا نقول... «بيصير خير إن شاء الله»!..

خرجت بصحبة يوسف أفندي من المقهى، قال لي:

- هيا لنذهب إلى المختار.

لدى المختار دكان، لذلك قصدنا الدكان، كرر يوسف أفندي ما تحدث عنه في المقهى على المختار، كان المختار يستمع باهتمام إلى يوسف أفندي لدرجة أن عينيه ذوتا وذابتا.

عندما أنهى يوسف أفندي كلامه سأل المختار:

- هكذا تسير الأمور، يجب أن نتعاون ونعمل سويةً،.

كان المختار يحدق في يوسف أفندي لكن دون أن يتزحزح من مكانه.

- إيه!.. ماذا تقول يا مختار؟.

- «بيصير خير إن شاء الله»!...

غادرنا المكان، سألته:

- ماذا سنفعل يا يوسف أفندي؟.

- سنحاول، وإذا لم نفلح بذلك سنقوم بتأمين عمال بالأجرة وسنبني المدرسة.

اشـترى يوسـف أفنـدي جميـع مـستلزمات البنـاء، الرمـل والحـصى والاسمنت والكلس، كـل شـيء، قـالوا إن «صـري» موسـى يفهـم بأعمـال البنـاء، اتفق معـه ومـع سـتة شباب لمساعدته، جميـع أجـورهم مـن يوسـف أفنـدي، بـدؤوا بالعمـل، لكـن العمـل لا يتقـدم قيـد أنملـة بأيـة حـال مـن الأحوال..

- هيا يا «صري» موسى.

- كل شيء سيكون على ما يرام.

يمـر عليهم يوسـف أفنـدي مـساء اليـوم التـالي، يتحـدث إلى «صـري» موسى بشكل مسهب، لكن لا حياة لمن تنادي، عندما ينهي يوسـف أفنـدي كلامه يكون جواب «صري» موسى:

- لا تهتم، «بيصير خير إن شاء الله»!...

مضى شهر على بداية العمـل، لم ترتفـع الجـدران أعلـى مـن مـستوى الركبة، لذلك ذهب يوسف أفندي إلى المدينة واتفق مع بعض المهنيين وأنهى بناء المدرسة، لكن المسألة الآن هي عدم وجود التلاميذ... ذهبنا إلى الإمام، قدم الإمـام إلى هـذه القرية منـذ عـشرين عامـاً، ومنـذ ذلـك الوقـت اسـتوطن هنـا، قال له يوسف أفندي:

- رجاء يا إمام أفندي.. لنعمل سوية...

مسد الإمام لحيته وقال:

- «بيصير خير إن شاء الله»!..

عملنا وحاولنا حتى استطعنا جمع ستة عشر طفلاً.

ذات مـساء كنـا في القريـة، فجـأة دخـل «صـري» موسـى، لكنـه لم يكن ذلك الذي نعرفه، كان أكثر حيوية، متلهفاً، يتخبط، كانت بقرته مريضة:

- ستموت بقرتي يا أغوات.

يشرح تارة لمراد أغا وتارة لخضر القهوجي وهو يصرخ:

- مراد أغا، مراد أغا.. قل لي شيئاً ما كي أفعله، البقرة تتفلت من بين يدي

يرد عليه مراد أغا وشفتاه ترتعشان:

- «بيصير خير إن شاء الله»!..

يهرع نحو خضر القهوجي:

- رجاءً عمي خضر، هل تعرف علاجاً؟.

يجيب خضر القهوجي:

- لا تقلق، لن يصيبكم إلا ما كتب الله عليكم.

- سيموت الحيوان!..

- «بيصير خير إن شاء الله»!..

شتم «صري» موسى الحاضرين وخرج من المقهى.

ذات يوم كنا جالسين عند بئر القرية، «صري» موسى وخضر القهوجي كانا معنا أيضاً، لمحنا الإمام، حافة جبته تطير وهو يركض نحونا:

- ساعدوني يا أغوات، لقد احترقت وانتهيت!

كان صوته متهدجاً كأنه على وشك البكاء، لكن لا يوجد من يهتم.

- هيا موسى! اركض أتوسل إليك «صري» موسى، حرقوا البيدر، حرقوا بيدري!..

كان الإمام يتحدث وهو يتخبط..

رد «صري» موسى وكأنه يتثاءب:

- اهدأ يا روحي! اهدأ وماذا حصل؟.. لا تقلق «بيصير خير إن شاء الله»!...

راح الإمام يصرخ:

- «ولك» يخرب بيتك، وهل هناك ما هو أسوأ من ذلك، أقول لكم حرقوا البيدر هيا اركضوا..

قال له خضر بصوت ناعس:

- لا تشاغب، بيصير خير، «بيصير خير إن شاء الله»!...

ركض الإمام نحو دكان المختار.

كنا نجلس كل ليلة أنا ويوسف أفندي لنتبادل الحديث، لنبوح بما في أعماقنا، هو يسألني:

- ماذا سنفعل؟.

و أنا أسأله:

- ماذا سنفعل؟.

حل فصل الشتاء، ودخلت «ميجير» في حالة السبات الكامل، في ذات ليلة استيقظت على صوت نحيب مؤلم، كان مصدر الصوت من المقهى، ارتديت ثيابي وذهبت، خضر القهوجي يبكي ويلطم وجهه، فهو قد ضبط زوجته مع المختار، يشرح ويصرخ ويبكي.

قال الإمام وهو يتثاءب:

- «بيصير خير إن شاء الله»!...

- ولك إمام.

- بيصير خير خضر أغا، «بيصير خير إن شاء الله»!..

- ولك إمام، وهل بقي إن شاء الله وما شاء الله؟. أقول ضبطهما في مستودعه، مستودع التبن، يحاول مراد أغا التخفيف عنه قائلاً:

- اصبر، الله يجازيها، «بيصير خير إن شاء الله»!...

كان خضر يرغي ويزيد، يشتم الجميع بملء الفم.

في اليوم التالي أعلمت يوسف أفندي بكل ما جرى، فقال لي:

- كل صاحب مصيبة يهتم بمصيبته وكل عنزة معلقة بكرعوبها.

في اليوم التالي يتم نسيان كل شيء وكأن شيئاً لم يكن، أهل «ميجير» معتادون على فتح أفواههم خمس مرات في اليوم، في هذه المرات الخمس يرددون عبارة «بيصير خير إن شاء الله»!..، لو لم يكن يوسف أفندي موجوداً لجننت لا محال، وهو بدوره يقول لي «لو لم تكن يا أستاذ هنا لجننت».

حل فصل الربيع، وذاب الثلج، ذات يوم كنا جالسين في دكان المختار ومعنا «صري» موسى والإمام، وإذا بمراد أغا الكبير يأتي إلينا وهو متلهف يصرخ ويقول:

- مختار، يا مختار... فقدت ابني الجسور مثل السبع.

مراد أغا يقفز في مكانه مثل الجراد «اركض يا مختار»!

كان يتحدث وقطرات العرق تقطر من أسفل لحيته، أوقعوا ابن مراد أغا في كمين وضربوه، كان مراد أغا يتحدث وهو يبكي:

- قل شيئاً يا مختار!.

- ماذا نقول يا أغا... «بيصير خير إن شاء الله»!... وماذا نقول غير ذلك؟.

- «ولك» يا مختار القواد، ولك يا عدو الشرف...

- «بيصير خير إن شاء الله» يا مراد أغا...

- «ولك» هل يوجد أسوأ من ذلك، يا مختار المنحط أقول لك ابني الجسور مثل السبع يسبح بدمائه، مات.. «صري» موسى ابني انتهى.

- بيصير خير مراد أغا، «بيصير خير إن شاء الله»!...

كنت على وشك أن أفقد عقلي وأجن، ليلتها قدم يوسف أفندي إلي وسألني:

- وما نهاية ذلك؟.

تريثت قليلاً وقلت:

- «بيصير خير إن شاء الله» يا يوسف أفندي.

كاد يوسف أفندي أن يفقد وعيه مما سمعه:

- وأنت كذلك يا أستاذ، وأنت؟

- والله لم أقصد ذلك، بل تفوهت بها لغواً يا يوسف أفندي.

بعد مرور فترة من الزمن، كنا ذات صباح جالسين في المقهى، فتح الباب بقوة، دخل المختار وقد اسود وجهه، وصاح مستجيراً:

- رجاءً يا أغوات، رجاءً.

لم يسأله أحد:

- ماذا جرى يا مختار؟

راح المختار يضرب رأسه ويشد شعره:

- هيا انهضوا يا أغوات، هيا، لقد اختطفوا ابنتي.

كان المختار يدور مثل البلبل الخشبي، تارة يتجه نحو مراد أغا يحدثه عن مصيبته وتارة أخرى نحو خضر القهوجي، بينما كان الإمام يحك فروة رأسه عندما قال:

- يا إمام، خطفوا ابنتي، خطفوها.

لعلع صوت «صري» موسى:

- بيصير، بيصير، «بيصير خير إن شاء الله»!..

- مراد أغا، يا أخي، أقول لك.

- «بيصير خير إن شاء الله»!...

بعد مرور نحو أسبوع اختطفوا عروس الإمام الجديدة إلى الجبل، بعد ذلك زوجة خضر القهوجي الثانية. صرخ «صري» موسى وهو ينتحب:

- الحقوني!، زوجتي تحتضر.

بعدها ضربوا شقيق «صري» موسى.

لكن دون أدنى حركة، وفيما لو همّوا في الأمر وأرادوا تقاسم الهموم لصدرت عنهم عبارة «بيصير خير إن شاء الله»، «بيصير خير إن شاء الله»!...

في المساء وبينما كنت أمر من أمام المقبرة أصاب رأسي حجر فشجني، عدت إلى يوسف أفندي والدم يغسلني:

- أنا لا أستطيع البقاء في هذه القرية أكثر من ذلك!.. نفثت عن همومي وتحدثت ملياً نظرت إلى يوسف أفندي فوجدت عينيه وقد انزاحتا من محجريهما وذبلتا:

- رجاءً يا يوسف أفندي قل لي شيئاً ما.

فاجأني بقوله:

- ماذا أقول لك يا بني، «بيصير خير إن شاء الله»!..

انتهت السنة الدراسية، وبدأت العطلة الصيفية، حزن يوسف أفندي كثيراً عندما قلت له إني مغادر القرية، حتى أنه كاد أن يبكي، وقال لي:

- لا تغادر، إن غادرت سأجن لا محال.

صباح يوم مغادرتي القرية أتى يوسف أفندي إلى المقهى وهو يشد شعر رأسه، لصوص دخلوا بيت المسكين، ويسأل:

- من يمكن أن يفعل ذلك؟

لا جواب من أحد..

- أقول لكم من فعل ذلك؟

أجابه مراد أغا:

- لا نفع لما نقوله، «بيصير خير إن شاء الله»!...

راح يوسف أفندي يضرب رأسه بالحائط:

- لقد سرقوا كل ما أملك وهل في ذلك ما هو جيد.

غادرت قرية «ميجير» وتعينت في قرية أخرى، وأنا هنا في استنبول منذ شهرين، البارحة سمعت أن يوسف أفندي فقد عقله.

قال الطبيب المتمرن المكور:

- واه واه، لنناديه كي تلتقيا.

بعد قليل أتوا برجل كبير في السن لكن يبدو عليه النشاط ذو وجه أحمر، قال له الأستاذ بصوت مرتعش:

- مرحباً يوسف أفندي.

أجابه يوسف أفندي:

- بيصير خير، «بيصير خير إن شاء الله»!..

- ألم تعرفني يا يوسف أفندي؟.

- «بيصير خير إن شاء الله»!...

اغرورقت عينا الأستاذ:

- كيف حالك؟.

أعادوا يوسف أفندي، كان يحدث نفسه وهو ذاهب «بيصير خير إن شاء الله»!...

تشكر الأستاذ الأطباء الشباب المتمرنين وسألهم:

- هل سيتحسن؟.

أجابه الطبيب المتمرن الأشقر:

- «بيصير خير إن شاء الله»!..

رد الأستاذ قائلاً:

«بيصير خير إن شاء الله»!..

المليونير المزيف

حتماً سيحرز المركز الأول فيما لو أجريت مسابقة عالمية للحمقى، فهو أحمق لم يذكر التاريخ مثله.

نعم؟.. ماذا قلت يا سيدي؟.. كيف أصبح هذا الأحمق مليونيراً؟.. هيهيه! لأوضح لك.

أتذكر دخوله إلى المعمل وكأنه اليوم.

أنشأ ممتاز بيك و «موسو ليفي» اليهودي المحترم فوق العادة في استنبول معملاً، تأسيس هذا المعمل حدث لا يدخل إلى العقل، لا بميزان ولا بقبان. يومها كنت أعمل محاسباً عند ممتاز عندما كان بائع أقمشة بالجملة في أحد خانات «أصما ألتي».

يومها استغرب الجميع في السوق تشارك «موسو ليفي» هذا اليهودي البخيل مع ممتاز بيك.

أما أنا فلم استغرب بتاتاً، لأنني أعرف بواطن الأمور.

غالباً ما يتناول ممتاز بيك طعام غدائه في المطعم، ليعود إلى المحل ليأكل الفواكه أو الحلويات، وعندما يشتري الفواكه، لا يشتريها إلا من البائع المتجول الذي يمر من أمام المحل، بذلك تكون أرخص مما هي عليه في المطعم، على كلٍ كل ما يشتريه كان برتقالة واحدة أو حبة يوسفي.

ذات يوم نادى ممتاز بيك البائع المتجول، وكان في ضيافته «موسو ليفي» أحد معارفه منذ زمن طويل:

- بكم البرتقالة؟.

- بأربعين قرشاً.

بحث الحاج ممتاز بيك لفترة ليختار أكبر برتقالة وقال:

- سأعطيك ثلاثين قرشاً.

- لا يمكن بأقل من أربعين.

- لن أعطيك أكثر من ثلاثين.

- يا سيدي أنا اشتريتها بثلاثين قرشاً، هيا لتكن بخمسة وثلاثين.

- ثلاثون.

- خمسة وثلاثون.

- بثلاثين.

- سأبيعك باثنين وثلاثين قرشاً ونصف.

- بثلاثين.

استمرت هذه المساومة زهاء عشر دقائق ليشتري أخيراً برتقالة واحدة.

نظرات «موسو ليفي» كما فهمت كانت تفصح أنه كان يدقق ويتفحص ممتاز بيك.

قشر ممتاز بيك البرتقالة وقسمها إلى قسمين ليعطي «موسو ليفي» القسم الأصغر:

- تفضل يا موسو ليفي.

مد «موسو ليفي» يده وأخذ نصف البرتقالة، ثم راح يلتهمها حزاً حزاً وقال:

- حجي بيك!، ما شاء الله.. ما شاء الله أنت غني جداً، لكن ما أدهشني هو مساومتك من أجل برتقالة واحدة.

أجابه وهو يلوك لقمته بعد ضحكة:

- السبب هو أنني لو اشتريت شيئاً دون مساومة فإني أجده عديم الطعم، فلو أعطيته ثمن هذه البرتقالة كما طلب، لما تلذذت بطعم هذه البرتقالة الريانة يا موسو ليفي. أليست غنية بالعصير يا «موسو ليفي»؟.

استغرب «موسو ليفي» الشحيح البخيل مما سمع:

- لكنه رجل فقير، ولن يضرك شيء لو أخذ عشرة قروش إضافية؟.

- لا تقل مثل هذا الكلام يا موسو ليفي، فالعشرة قروش أو العشر ليرات لا قيمة لهما عندي، لكن، لو اشتريت مرة واحدة بلا مساومة، لاعتدت على ذلك وأفسدت طبيعتي، وبعد ذلك لن أساوم في العمليات الكبيرة، هذا هو مصدر خوفي، وإلا فأنا لا أهتم بالعشرة قروش.. على كلٍ هذا المبلغ سأعطيه لمتسول وبذلك أكسب ثواباً. أنا أساوم حتى لو اشتريت شيئاً ببضعة دريهمات، كي لا أفسد ما اعتدت عليه، أفهمت السبب الآن؟.

حسب تحليلي الشخصي فإن رغبة «موسو ليفي» في مشاركته نبعت من هذا الحوار.

و حسبما عرفت فيما بعد فإن الحاج ممتاز بيك قال له:

- محاسبي رجل صادق وأمين ولا يبوح بالسر، لذلك فمن المفيد تشغيله في معملنا.

أجابه موسو ليفي:

- جميع حساباتنا ستكون مكشوفة، ولا داعي للاحتيال، ولا حاجة لنا إلى محاسب كاتم للسر.

بناء على ذلك قال لموسو ليفي:

- لا تؤاخذني على إصراري، فمحاسبي رجل أمين وصاحب وجدان، فهو يعمل عندي منذ خمسة عشر عاماً. ولم يطلب في يوم من الأيام زيادة لمرتبه، على الرغم من أنه يعيش في ظروف قاسية، لذلك سأزيد له أجره

بضعة قروش، فيما لو عمل في المعمل إضافة لعمله، وبذلك نكون قد ساعدنا في حل أزمته.

و هكذا، كنت داخل هذه المعمعة منذ اللحظة الأولى للتأسيس.

رحت أعمل محاسباً في المعمل وفي متجر الحجي ممتاز بيك، وليحمه الله، فقد زاد الحاج ممتاز بيك مرتبي مئة وثمانين ليرة.

لم يرصدا لهذا المشروع عشر ليرات، كيف تم ذلك؟... لأنهما كانا خبيرين بهذه الأمور.

راحا يبحثان عن مكان لإقامة المعمل، وبسبب ضيق وقتيهما كلفني الحاج ممتاز بيك بالبحث عن مكان لاستئجاره.

عندما قلت لهما إنني محاسب، ولا أفقه في هذه الأمور، قال لي موسو ليفي:

أن لا تفقه شيئاً هو المطلوب، فكل ما نبحث عنه مكان بأربعة جدران وسقف، وأن يكون أجره رخيصاً، ولا فرق لدينا أي معمل كان في السابق.

أردف الحاج ممتاز بيك:

- ستقوم بالبحث خارج أوقات دوامك، وبذلك ستستفيد من البحث وستقوم بالتقصي بكل حرية.

وجدت مكاناً أجرته رخيصة في منطقة «أيوب» يتسع لأربع طاولات.

ذهبنا سوياً لمشاهدته، أعجبهما المكان إلا أنهما لم يتفقا على الأجرة.

فيما بعد وجد «موسو ليفي» معملاً لإنتاج النبيذ، كذلك ذهبنا لمعاينة المكان، وفي الطريق همست في أذن الحاج ممتاز بيك:

- كيف سينتج معمل النبيذ أقمشةً؟..

- «موسو ليفي» رجل مدهش، فهو يقوم بكل شيء.

كل ما كنت أخشاه هو أن «يخوزق» «موسو ليفي» الحاج ممتاز بيك، وإلا ما همني ذلك.

أعجبهما معمل النبيذ، إلا أنهما وجدا أجره مرتفعاً.

فيما بعد وجد الحاج ممتاز بيك معملاً لتصنيع البراغي في «أيفان سراي». ومثل كل مرة، ذهبنا لمشاهدة المكان، ثانية لم احتمل الموقف لذلك قلت للحاج ممتاز بيك كي أنبهه:

- ستكلفنا غالياً عملية تفكيك آلات تصنيع البراغي، وإعادة تركيب آلات تصنيع القماش، أليس من الأفضل إنشاء معمل جديد؟

أجابني:

- آلات تصنيع البراغي لن تفكك بل ستبقى في مكانها.

شيء يضع العقل في الكف، أيعقل تصنيع الأقمشة بآلات تصنيع البراغي؟

حتى هذا المكان «أيفان سراي» لم يجداه مناسباً.

بعد فترة وجدت معملاً للمطاط، وقد أعجبا به كثيراً، لكن بما أن صاحب المعمل يريد الأجر نقداً، وصاحبانا يرغبان في التعامل بالسندات لذلك لم يتم أي اتفاق.

في نهاية المطاف وجد «موسو ليفي» مدبغة لدباغة الجلود البقرية في منطقة «يدي كوله»، طبعاً لم يسددا الأجر نقداً، بل وقعا على مجموعة سندات أمانة مستحقة الدفع لمدة ثلاثة أشهر، لأن سند الأمانة بتوقيعهما أكثر قوة من النقود التي تصدرها الدولة.

عندما أقول معملاً لتصنيع جلود البقر، فهذا يعني معملاً متهاوياً يشبه كل شيء إلا المعمل. اهتممت كثيراً بكيفية إنشاء معمل نسيج في هذا المكان، وكيفية إنتاج النسيج.

علقا لوحة كبيرة على واجهة المكان كُتب عليها «معمل الحاج ممتاز» تورك سويلو «و شريكه للمنسوجات».

أرياني غرفة مكتبي. وقال لي «موسو ليفي»:

- لقد بدأنا العمل، أتمنى أن يكون مكان خير وبركة.

سألته:

- أين؟..

أجابني الحاج ممتاز بيك:

- ها هنا، أما افتتحنا المعمل؟.

سألت نفسي مستفسراً:

- أين هو المعمل؟!!.

كنت أتوقع وصول الآلات فيما بعد.. في النهاية وصلت. نعم وصلت مجموعة خردة، عبارة عن مسننات ومحاور ومسننات فولان وما شابه من قطع مهترئة، هذه القطع لم تعمل بتاتاً، لأنها أساساً غير صالحة للعمل، وحتى لو عملت، فهي لو انزلقت واحدة منها من موقعها وتدحرجت، رُفعت لتوضع في أعلى الكومة الحديدية.

كان «موسو ليفي» سعيداً وهو يفرك كفيه عندما قال:

- أعمالنا تسير على ما يرام، كل ما يلزمنا عامل للخدمة.

قلت له:

- وما هي مواصفاته؟.

- يجب أن يكون أحمق وبليداً، يجب أن لا يفقه شيئاً، عدا عن ذلك، يجب أن يكون أمياً.

تقدم الكثير بقصد الفوز بفرصة للعمل عندما انتشر خبر حاجة المعمل للعمال، راح كل واحد منهم يظهر مهارته كي يُقبل في العمل، إضافة لذلك كانوا يتشدقون بجديتهم في العمل، إلا أن «موسو ليفي» لم يعجبه أحداً منهم.

في اليوم الخامس على الأغلب أتانا أحدهم، ظننا أنه يبحث عن عمل، سأله «موسو ليفي»:

- ما اسمك؟.

أجابه:

- نعم؟.

- أسألك ما اسمك؟

- ماذا؟.

- اسمك أنت؟.

- اسم من؟.

- أنت، اسمك أنت؟.

- اسمي أنا؟.

حماقته كانت تستفز مستمعه لدرجة الانفجار، حتى «موسو ليفي» ذو الدم البارد كاد أن ينفجر، لذلك صرخ:

- اسمك أنت ومن غيرك هنا؟، ما اسمك؟.

فكر الرجل ملياً ثم أجاب:

- خضر.

- خضر!.

- ماذا؟.

- أتبحث عن عمل؟.

- عمل؟.

هكذا كان «موسو ليفي» يسأله وهو بدوره يرد على الأسئلة بأسئلة أخرى.

- من؟.

- أنت؟.

- أنا؟.

- أنت، نعم أنت هل أتيت تبحث عن عمل؟.

- أي عمل؟.

لم يستطع الحاج ممتاز بيك ضبط أعصابه أكثر من ذلك إذ استشاط غضبا وصرخ به:

- هيا انقلع من هنا.

استدار خضر إلى الوراء، أثناء ذلك ارتطمت يده بإبريق الماء ليقلبه على الأرض من ثم ارتطم «بالطربيزة» ليسقطها أرضاً، ظل فترة مستلقياً على الأرض محاولاً التخلص منها. لكن دون جدوى، وكأن «الطربيزة» تحولت إلى كائن حي بثلاث أرجل ليتشابكا، راحا يتقلبان لفترة من الزمن، تارة هو فوقها وتارة هي فوقه، في نهاية المطاف تخلص منها ليقف، ومن ثم اتجه نحو الجدار، ليرتطم بالقسم الزجاجي..

- أين الباب؟.

من شدة قهقهتهما لم يستطيعا الإجابة كي يدلاه على الباب. صرخت به:

- على اليسار.

و بما أنه لا يعرف اليمين من الشمال، لذلك تاه وراح يميناً، من ثم شمالاً، ليندفع بجسده نازلاً على الدرج.

بعد لحظات سُمع صوت طرطقة ودحرجة وانقلاب أشياء، هرعنا لنستطلع الأمر، فوجدناه ممداً على الأرض. واضح أنه تدحرج على السلم، ليأخذ بطريقه أصص الفخار والدلاء.

- هذا هو ما نبحث عنه. قال موسو ليفي.

هل فقد هذا اليهودي عقله أم ماذا؟.

- ما هذا الكلام يا «موسو ليفي»؟ فهذا المعتوه لا يجد فمه إلا بصعوبة إذا أراد أن يأكل!!.

- نعم هذا رائع، وهو ما نبحث عنه.

قُبل خضر في العمل، لكن أي عمل؟.. فهو لا يقوم بشيء، عذراً سوى أن يقلب ويكسر بعض الأشياء، ومقابل ذلك يحصل على أجرٍ أسبوعي قليل.

قال موسو ليفي:

- أمور العمل تسير كما يجب، هيا لنبدأ الإنتاج.

استمر معمل الأقمشة لمدة ثلاث سنوات، طوال هذه الفترة لم يدخله سنتيمتر واحد من الخيوط،

و لم يخرج منه ميليمتر واحد من القماش، ومع ذلك كان معملاً، والأدهى أنه كان رابحاً، فجميع الأعمال مدونة في القيود، وهذه القيود كانت بين يدي، دخل المعمل كذا طن من الخيوط، طبعاً على الورق، لا أحد يدخل المعمل ولا أحد يخرج منه، كمية الخيوط الداخلة وكمية الخيوط الخارجة واضحة على الدفتر، كذا طن تم بيعه، وهكذا كنا نشتري ونبيع، نأخذ ونعطي، لكن على الورق فقط...

ذات يوم سألت الحاج ممتاز بيك:

- متى سيقلع المعمل؟

- إنه يعمل، أم ترانا نقدم عروض خيال الظل «كراكوز».

كلما تعمقت في شؤون العمل كلما تعلمت أكثر، أمثال جماعتنا كانوا يطلقون عليه لقب «المعمل المزيف».

لو كان معملاً حقيقياً، وينتج الأقمشة، لبلغت أرباحه من خمسة إلى عشرة بالمائة، أما هذا المعمل فقد كان يربح ثلاثين بالمائة، وطبعاً هذا الرقم هو المبين في الدفاتر، بينما الأرباح الحقيقية أكثر من ذلك بكثير...

فيما بعد تكشف لي سبب مشاركة «موسو ليفي» مع الحاج ممتاز بيك، لأن الحاج ممتاز بيك يتمتع بمعارف وأصدقاء وأقارب في الوزارة

والأماكن الحساسة، وبذلك استطاعا أن يحصلا على مخصصات جيدة من الخيوط.

اتسم «موسو ليفي» مثله مثل الحاج ممتاز بيك بالأمانة والسمعة الحسنة، لذلك فكثيراً ما كان يردد أمام مستمعيه:

- لا أقبل بالتحايل في عملي بتاتاً، إذ لا يمكن أن تفترق التجارة عن النزاهة، حساباتنا يجب أن تكون في غاية الدقة.

كنا نسدد جميع أجور عمالنا الأسبوعية، طبعاً دون أن يعملوا، أو أنهم يقومون بأعمال زراعية في حديقة المعمل أو ما شابه ذلك، لهذا السبب كانت أجورهم قليلة، نعم أجورهم كانت تسدد بدقة، كذلك كانت تدفع عنهم رسوم التأمين وضرائب أرباح المعمل، حقيقة لم يكن في ذلك أي تلاعب.

أما خضر فقد ازدادت مهماته حسب اللوائح وأصبح مديراً، ويقبض راتباً شهرياً وقدره ألف ليرة، بينما كنت أعمل محاسباً في مكانين مختلفين وأقبض تسعمائة ليرة.

بلغ نصيب كل واحد منهما خلال الثلاث سنوات أربعة ملايين ليرة، طبعاً هذه هي الأرباح المبينة في الدفاتر، أما الأرباح الحقيقية فلا أعرفها بدقة.

ذات يوم أتى «موسو ليفي» ليقول للحاج ممتاز بيك:

- لنكتفِ بهذا القدر يا حجي بيك، علينا إغلاق المعمل وتصفية حساباتنا قبل أن تحل بنا مصيبة نحن بغنى عنها، وبذلك نأكل خر...

أجابه الحاج ممتاز بيك المتلذذ بطعم الأرباح:

- حرام إغلاق معمل كهذا.

- ودخولنا السجن أليس حراماً علينا؟.

اتخذا قراراً بإغلاق المعمل، وأنا كنت أكثر المنزعجين، إذ راتبي سينخفض مائة وثمانين ليرة لقاء عملي الإضافي.

في اليوم الأخير من عملنا في المعمل، سمعنا صوت طرطقة، ضحك «موسو ليفي» قائلاً:

- القادم هو خضر المعتوه.

- حقيقة كان هو القادم، دخل الغرفة ومع دخوله أوصد الباب خلفه ووضع المفتاح في جيبه، ومن ثم اتجه ليجلس على الأريكة وقال:

- مئة ألف ليرة.

كان الحجي يضحك عندما سأله «موسو ليفي»:

- أي مئة ألف.

أشعل خضر سيجارة وكرر ثانية:

- مئة ألف.

- ولم المئة ألف؟

- مئة ألف ليرة.

- هيا اخرج وانقلع.

راح خضر يكرر ببرودة أعصاب «مئة ألف».

شُدِهت عندما رأيت الضحكة تتجمد على وجهي الحاج ممتاز بيك وموسو ليفي.

- مئة ألف.

- لكن يا خضر.

- مئة ألف.

- يا بني، يا خضر.

- مئة ألف.

- أخي خضر..

خضر لا يتفوه سوى بعبارة «مائة ألف»، بداية أرادا إخافته لكن دون جدوى، ومن ثم راحا يتوسلان، أيضاً لم تنفع هذه الطريقة.

- لكن يا خضر بيك ليست لك أية مطالب، صفينا كل حقوقك وزيادة.

لف خضر رجلاً على رجل وقال:

- مئة ألف.

- والله لو معنا.. لكن هذا المبلغ غير متوفر.

أومأ خضر بأنفه تجاه الصندوق الحديدي قائلاً:

- مئة ألف.

عندما لم تنفع معه جميع الوسائل قال له «موسو ليفي»:

- حسناً، تعال غداً يا خضر بيك.

ثانية ردد خضر العبارة التي تستفز الأعصاب وتحفر في الرأس.

- مئة ألف.

أخيراً أخرج «موسو ليفي» دفتر الشيكات من جيبه ودوّن مئة ألف ليرة ليعطي الشيك لخضر.

لم يأخذ خضر الشيك بل قال:

- مئة ألف.

في نهاية المطاف، فتح «موسو ليفي» الصندوق الحديدي مخرجاً النقود، ومن ثم راح يعد في يد خضر، تحايل «موسو ليفي» على خضر، وهو الذي لم يتلاعب بحساباته بتاتاً، وبما أن خضر لا يفقه في الأرقام، فقد خوزقه «موسو ليفي» بعشرة آلاف ليرة.

أخذ خضر المبلغ المرقوم ليفتح الباب بالمفتاح ويغادر دون أن يودع أحداً.

قال «موسو ليفي»:

- تفوه.. كان بإمكاني نقده بذوات المئة وأحتسبها عيه ذوات الألف، لكنني تنبهت إلى ذلك متأخراً.

أغلق المعمل لأعود وأعمل محاسبا في مخزن الحاج ممتاز بيك التجاري.

فيما بعد أصبح خضر مليونيراً، وهو الآن غني جداً..

- كيف أصبح هذا المعتوه مليونيراً؟.. أوهوه، لا داعي لأن تستخدم عقلك كي تصبح غنياً، كل ما يلزمك أن تبدأ بمئة ألف ليرة، الشطارة أن تجد هذا المبلغ، لا يا روحي هو لم يعقل، بل ما زال معتوهاً كما كان، لكن الكثير من العقلاء يعملون تحت أمرته، ويبذلون جهودهم كي تزداد ملايينه.

فيما بعد غير اسمه ليصبح رضى، والجميع في السوق يعرفونه باسم رضى المزيف «النايلون».

الطفل الذي سيصبح ذا شأن

عتبت على خالي كثيراً لأنه قال عني عندما أنهيت المرحلة الإعدادية بنجاح:

- هذا الطفل لن يكون له مستقبلٌ باهرٌ.

كلمة خالي مسموعة، ويحسب له ألف حساب، لأنه الوحيد من عائلتنا الذي أصبح ذا شأن.

قلت لهم:

- سأدرس وسأثبت لخالي خطأ موقفه مني وسأبين له من أنا.

أخبروا خالي بموقفي هذا، وتشبثي بدراستي، ومع ذلك قال لهم:

- هذا الولد لن يصبح رجلاً!

أنهيت كلية الآداب متحدياً خالي الذي لم يغير موقفه مني، بل قال:

- هذا الولد لن يصبح رجلاً.

بعد كلية الآداب وخوفاً من أن لا أجد عملاً، أنهيت كلية الفلسفة.

عندما سمع خالي بذلك استشاط غضباً، ثم راح يرغي ويزبد ويصرخ بأعلى صوته:

- ألم أقل لكم إنه لا خير في هذا لولد، لأنه لن يصبح رجلاً.

- بالفعل عندما أنهيت كلية الفلسفة ثبت إلى رشدي، ووجدت أن خالي كان على حق، لأن كلية الفلسفة والآداب لا تؤمنا مهنة يمكن الاعتماد عليها، فلِمَ لا أجد مهنة أستفيد منها في حياتي العملية؟، في هذه

الأيام كانت كليتا الطب والهندسة تدران ربحاً، حتى الفتيات فإنهن عندما يخطبن من أحدهم، كن يشترطن أن يكون طبيباً أو مهندساً. الهندسة لم أقتنع بها، لأنك عندما تقوم بإشادة بناء، فإن معلم البيتون يضع الطين بدل الأسمنت، وعند عدم توفر مواد البناء، فإنه يستخدم التنك بدل الحديد، وعندما يقع صاحب العمارة في ورطة مالية، يجبره على غرز مسامير الحدوات بدل المسامير العادية. وعندما ينهار البناء، يتحمل المهندس مسؤولية الانهيار كونه أخطأ في دراسة المشروع. أما الأطباء فليسوا كذلك، إذ إن الطبيب عندما يخطئ في تشخيص الداء، ويصف دواء يتسبب في وفاة مريضه، يجد المخرج بإلصاق المرض بأسماء لاتينية ويونانية طويلة، لذلك انتسبت إلى كلية الطب. مع ذلك استشاط خالي غضباً:

- ألم أقل لكم إنه لن يصبح رجلاً؟.

- حسنٌ، لم لا أذهب إليه؟. وبالفعل زرته في بيته وقلت له:

- خالي، لقد أنهيت المرحلة الابتدائية بدرجة جيد، وعندما أنهيت المرحلة الإعدادية، سجلوا اسمي في لوحة الشرف. بعد ذلك أنهيت الثانوية بامتياز، ومن ثم حصلت على دبلوم في الآداب، وكذلك في الفلسفة.

و ها أنذا أدرس في كلية الطب، فماذا تريد مني أكثر من ذلك؟ ماذا علي أن أفعل وأنت تتمسك بعبارة لن يصبح رجلاً؟ وما زلت تكررها بمناسبة وغير مناسبة؟!.

سألني:

- حسن، وهل أصبحت رجلاً؟.

- إلى الآن لا لكن سأصبح بإذن الله.

- طالما أنك تحمل مثل هذا الرأس، وهذا التفكير فلن تصبح رجلاً حتى لو أنهيت تحصيلك العلمي في جامع الأزهر أو السوربون أو الكامبردج، وحتى لو أنهيت ثلاث كليات لا اثنتين.

- لماذا يا خالي؟.. وما عيب رأسي؟.

- اسمعني جيداً وافتح أذنيك، أتدر ي كم أمتلك من الأموال؟.

الجميع يعرف غنى خالي، لذلك سكتُ، بينما هو راح يحصي ما عنده:

- عمارة بعلو ست طبقات، وفي كل طبقة شقتان، وعمارة في «لاهليو» وأخرى في «ماتشكا»، كذلك في أنقرة، ومكتب في «تهطه قلعة». وبستان في «أسكي شهر»، وفيلا في «ارنكوي». ومخزنان وخمس محلات.. اندهشت كثيراً مما سمعت.

- كل هذا عدا أموالي المودعة في المصرف، ففي أية مدرسة أنهيت تعليمي هاه؟.

- على الأغلب في أوربا..

ضحك ثم أردف قائلاً:

- ليس لدي التحصيل العالي..

- إذاً أنهيت المرحلة الثانوية..

- انزل، انزل أكثر..

- الإعدادية..

- ولا الابتدائية حتى..

دهشت أكثر وأكثر لدرجة أنني افتقدت الكلمات، ولم أعد أستطيع التفوه بكلمة واحدة حتى.

- أتعرف ماذا أعمل؟.

- لا، وهذا أيضا لا أعرفه.

طبعاً هو ليس تاجراً، ولا متعهداً وبما أنني لا أعرف طبيعة عمله قلت له:

- لا بد أنك رجل سياسة.

ضحك وقال:

- أنا لا مهنة لدي، ولم أرث كي أعيش الحياة بطولها وعرضها ولم أربح ورقة يانصيب، وزوجتي ليست غنية، شكراً لله لأني لا أعمل عملاً غير أخلاقي.

- وكيف أصبحت غنياً إذاً؟.

- هاه، الآن بدأت تفهم، اسمعني جيداً، عمل والدي على تدريس أخي في استنبول، مسكين إنه ما زال متعثراً في حياته إلى الآن. أما أختي فقد تزوجت موظفاً يعمل في قريتنا، يعني والدك، وهم أيضا سكنوا استنبول، ظروفكم المعيشية كانت متوسطة، تعلمت القراءة والكتابة أثناء الخدمة العسكرية، ثم رقيت بسبب نباهتي إلى رتبة عريف، وعندما أنهيت الخدمة الإلزامية اشتريت ملابس جديدة، لبست يومها مثل أبناء المدينة، لم أكن أمتلك يومها عشر ليرات حتى، عندما نزلت من القطار في محطة حيدر باشا وجدت حشداً من الناس، فدخلت بينهم وما زلت داخله حتى هذا اليوم، يومها التقط الصحفيون صوري وأنا في مقدمة هذا الحشد.

يومها خصصوا لي جناحاً خاصاً في الفندق، استضافوني، أكلت وشربت، حينها لم أستطع التحدث بشكل جيد لأنني كنت شاباً، عديم الخبرة والدراية، ولعل هذا ما أعجبهم.

- «و لك» يا خالي ألم يسألوك من أنت، وماذا تفعل هنا؟.

- «و لك» يا أحمق جميعهم كانوا مثلي، لذلك من ذا الذي له الحق بالسؤال؟ وفي اليوم التالي تصدرت صورنا الصحف وتحتها الأسماء، كانت

صورتي بجوار كبيرهم، وهكذا تعرف القراء على صورتي وعلى اسمي، وبدأ الصحفيون يتسابقون لإجراء اللقاءات معي والتقاط صوري، ليتصدر صحفهم عنوان عريض، شخصية مهمة تخص صحيفتنا بحديث خاص، وهكذا أصبحت لا أفارق الحفلات والافتتاحات في سيركجي وقطار يشيل كوي، والقصور.

البعض كان يظن أني واحد منهم، والآخر يعتقد أني من المعارضة المهمة. كنت أتحدث مع الشخصيات المهمة في البلد دون تكلف، ولعل هذه أفضل طريقة للنجاح، ودون أن أتجشم عناء الإنفاق عليهم، كنت أمد ذراعي على أكتافهم وأتحدث معهم مقهقهاً، لذلك كانوا يعتبرونني من الشخصيات المهمة، حتى أنني في بعض الأحيان كنت أسدي لهم النصح والمشورة، وكثيراً ما كنت أرسل لهم بطاقتي مدوناً خلفها عبارة أخي حسن افعل الشيء الفلاني.. قبلاتي الحارة.. طبعاً لا أحد يرد طلبي، بعد فترة أخذوا يطلبون مساعدتي وأنا بدوري أرسل طلباتهم المدونة على بطاقاتهم إلى من يستطيع تنفيذ ذلك، وأضيف عليها عبارة:

- صديقي علي بحاجة إلى مساعدتك، مع رجائي الحار يا أخي محمد تلبية الطلب وهكذا يا بني وحتى اليوم، أنا نفسي لا أعرف ماذا أعمل، ولا أنت. ولا غيرك يعرف ذلك، أنا لست رجل سياسة ولا تجارة ولا شيء.

يا بني أعضاء البرلمان قد لا ينتخبون ثانية، ورجال الحكومة قد تحجب عنهم الثقة، والمدير العام قد يستقيل أو يُقَال، والأحزاب قد تكون في السلطة ومن ثم تكون في المعارضة. أما أنا فواقف على قدمي في كل زمان ومكان. أبناء وبنات الشخصيات المهمة يكون لهم الشرف فيما لو كنت شاهداً على زواجهم، توَجه إلي الدعوات لحضور جميع

الحفلات، أنى ذهبت فلي احترامي وتقديري، هل فهمت الآن أيها المعتوه؟.

- وماذا لو نجحت يا خالي؟.

- ستفشل لأن المدارس والجامعات أفسدتك وشلت تفكيرك.

- حسن يا خالي، ألن أصبح رجلاً؟.

- خذ هذه البطاقة وأعطها لـ ...

بسبب تلك البطاقة التي زودني بها خالي أصبحت رجلاً.

الطاولة التي تنمو وتكبر

- سيدي

يقاطعه المدير

- أعرف يا عاصم أفندي أعرف.

يحاول عاصم أفندي إكمال حديثه، لكن المدير يقاطعه ثانية

- لا تفكر بأني نسيتك، أشكرك كثيراً يا عاصم أفندي وأقدر جهودك، أعرف تماماً أن عمل المكتب ملقى على عاتقك ولو لم تكن موجوداً لتوقف العمل منذ زمن طويل.

يضغط المدير على زر الجرس، ليقول للحاجب:

- ليأت المدير الإداري إلي.

ثم يتابع:

- إن جهودك لافتة للانتباه سأبدل طاولتك.

- ليطل الله في عمرك يا سيدي.

يتوجه بكلامه إلى المدير الإداري الداخل:

- اشتروا لعاصم طاولة أكبر

يخرج عاصم بيك متشكراً.

يعمل في هذا المكتب ثماني موظفات وسبعة وعشرون موظفاً، أما أن نقول إنهم يعملون فليس هذا كلاماً منطقياً، فهذا العدد من الموظفين والموظفات لا لزوم له، فجميعهم يقبضون رواتبهم، وهو الوحيد الذي يعمل، كان ينتج أكثر منهم جميعاً، وهذا معروف لعاصم بيك ولجميع الموظفين

والمسؤولين. حتى المدير كان يعرف ذلك، عاصم بيك الذي يعمل في هذا المكتب منذ أربعة عشر عاماً، لم يتغيب عن عمله يوماً واحداً، حتى عندما مرض لم ينقطع عن العمل بل داوم في عمله وهو مريض، كأن عمله من الصباح حتى المساء لا يكفيه، بل كان يأخذ المعاملات غير المنجزة إلى البيت، دائماً عندما كان يذهب من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل كانت حقيبته المهترئة مملوءة بالمعاملات.

حقيقة لا يمكننا القول أن الموظفين الآخرين لا يداومون، فعندما لا تكون هناك مباريات في كرة القدم وعندما لا يكونون مأذونين أو مرضى، فإنهم يداومون في الدائرة ويمضون وقتاً مسلياً وجميلاً.

عاصم بيك يعمل في هذا المكتب منذ أربعة عشر عاماً إلا أن راتبه لم يزد منذ بداية تعيينه قرشاً واحداً، بينما زملاؤه في المكتب وحتى الذين تعينوا بعده ازدادت رواتبهم ومراتبهم، كان عاصم بيك رجلاً مهذباً، إلا أن هذا لا يعني أنه لم يكن يطالب بزيادة راتبه، بل العكس كان يزور المدير مرةً واحدة على أقل تقدير وفي نيته أن يقول له «يا سيدي»، لكنه لم يستطع، عندما يفتح فمه ليقول:

- يا سي...

يقطع عليه المدير الحديث ليقول له:

- أعرف يا عاصم بيك، أنا مسرور جداً من عملك، لا تظنوا بأن عملكم لا يلفت الانتباه ثم يطلب المدير الإداري ليقول له:

- اشتروا طاولة أكبر لعاصم بيك.

ينحني عاصم بيك احتراماً ويقول وهو خارج من غرفة المدير:

- أطال الله عمرك.

ذات يوم قدم المدير إلى غرفة الموظفين، سأل عاصم بيك مندهشاً:

- هل أنت تعمل على هذه الطاولة؟

- نعم..

- كم طولها وعرضها؟

قاسوا أطوال الطاولة، تسعة وسبعون، أربعون سنتمترا.

صرخ المدير قائلاً:

- لا يجوز، هيا خذوا هذه الطاولة وكبروها فوراً، ليكن طولها مترين على أقل تقدير.

أمر المدير في يوم آخر عندما زار غرفة الموظفين:

- يجب تلميع طاولة عاصم بيك.

كلما زار المدير هذه الغرفة يقوم بطلب بعض التغييرات على طاولة عاصم بيك.

- آه عاصم بيك طاولتكم بلا زجاج، هيا ضعوا لوح زجاج على طاولة عاصم بيك.

لا أحد من الموظفين لديه طاولة جديدة وكبيرة وملمعة مثل طاولة عاصم بيك، ولا أحد منهم راتبه قليل مثل عاصم بيك، حتى طاولة المدير تبدو أمام طاولة عاصم بيك كدمية صغيرة.

المدير متفهم للغاية. وهو رجل طيب لذلك لم يكن عاصم بيك يتجرأ ليرفع صوته، أعماقه كانت تتحطم غيظاً، كان يفرح كثيراً لنمو وكبر طاولته من أسبوع لأسبوع ومن شهر لشهر، طاولة عاصم بيك أصبحت طاولة كبيرة عرضها متر ونصف وطولها ثلاثة أمتار.

ذات يوم كان منزعجاً مقهوراً بسبب الأزمة المالية التي يعانيها، دخل غرفة المدير دونما استئذان وبدأ حديثه:

- سيدي..

سبق أن جهز كتاب استقالته، الورقة كانت في جيبه، وسيرميها في وجهه إن هو لن يدعه يكمل حديثه ويزيد راتبه:

- سيد...

- أووووه عاصم أفندي، أنا مسرور جداً من عملكم، إنكم تعملون بشكل جيد.

ضغط المدير على زر الجرس وطلب المدير الإداري، قائلاً:

- لمَ لا تكبرون طاولة عاصم بيك؟.

أجابه المدير الإداري:

- يا سيدي لم يعد هناك مكان لطاولات الموظفين الآخرين.

- إذاً انقلوا جميع الموظفين إلى غرفة أخرى.

أصبح عرض طاولة عاصم بيك مترين ونصف وطولها أربعة أمتار، استمر سيادته بالعمل وحيداً في هذه الغرفة وعلى هذه الطاولة الكبيرة لمدة شهرين، بعد ذلك في أحد الأيام وقف أمام المدير حاول أن يقول له:

- يا سي..

كان وجهه يفصح عن مدى غيظه وغضبه، وقبل أن ينبس بكلمته الأولى قاطعه المدير قائلاً:

- لا تقلق عاصم بيك، نحن دائماً نقدر العاملين بشكل جيد، لا تظن أنك غائب عن ناظري.

ضغط على زر الجرس منادياً المدير الإداري ليسأله:

- هل لمعتم طاولة عاصم بيك؟.

- نعم يا سيدي! مرة كل شهر.

- وهل وضعتم لوحاً زجاجياً؟.

- طبعاً يا سيدي

- إذاً كبروا طاولة عاصم بيك.

«جعلك» عاصم بيك ورقة الاستقالة الموضوعة في جيبه. وخرج وهو يقول:

- ليطل الله عمرك يا سيدي.

ذات يوم عندما تم تكبير طاولة عاصم بيك قال المدير الإداري للمدير:

- لا نستطيع تكبير طاولة عاصم بيك بعد الآن.

- لمَ؟.

- لأن الطاولة أخذت كل أرجاء الغرفة ولم يعد لعاصم بيك مكان للجلوس، لذلك فهو يجلس عند عتبة الباب.

- إذن عليكم بهدم الجدار العازل بين غرفتين ويجب أن تكبر طاولة عاصم بيك.

- كبرت طاولة عاصم بيك وأصبحت كطاولة قادة الحروب التي يضعون عليها الخرائط ويديرون عليها العمليات العسكرية.

كاد عاصم بيك يطير من الفرح، لكن هذه الفرحة لم تستمر أكثر من شهرين، فهو لم يدفع أجرة البيت، وسيفصلون التيار الكهربائي عن بيته، وزوجته طلبت منه النقود وهو خارج إلى عمله.

دخل عاصم بيك مهلوساً إلى غرفة المدير يحاكي نفسه وكأنه يتشاجر مع المدير، ثمة سوائل تسيل من أنفه، لا، بلغ السيل الزبى، أكثر من ذلك لن يتحمل، سيقول له كل ما سيتفوه به، إما زيادة أجرته أو الاستقالة، دخل غرفة المدير بسرعة حتى دون أن يطرق الباب، لم يأت المدير بعد لم يبتعد عن الباب، وفور مجيء المدير قال له:

- يا سيدي

عادة لم يكن المدير يفسح له المجال كي يتم كلمته، أما الآن فقد كان مشغولاً بخلع معطفه ولم يكن لديه الوقت لسد فم عاصم بيك.

- عاصم بيك أنا سعيد جداً بعملكم.

- يا سيدي أنا موظف في هذه الدائرة منذ أربعة عشر عاماً.

- نشاطكم في العمل...

- لكن وحتى الآن لم تزد أجرتي الشهرية بتاتاً..

- طاولتكم..

- لا ، أنا لا أريد طاولة أو ما شابه، أجور الجميع زيدت إلا أنا..

- طاولتكم.

هذه المرة ليس عاصم بيك الذي لا يستطيع إتمام حديثه بل المدير، عاصم بيك يأخذ بثأره من صمت أربعة عشر عاماً ، فتح فمه وأغلق عينيه، صرخ المدير بعدما استمع لفترة:

- أنت رجل جاحد ، أنت لا تفهم بالمعروف، طاولة من كبيرة مثل طاولتك في هذه الإدارة الكبيرة؟ من من الموظفين يجلس خلف طاولة مثل طاولتك؟ ليس لديك أدنى إحساس بالخجل، ولا الإنصاف! ولك ماذا تريدني أن أفعل لك أكثر من ذلك، كبرت طاولتك في كل شهر، ولك أنا المدير بحجمي ومكانتي ليس لدي طاولة مثل طاولتك، طاولتك على وشك أن تحتل العمارة، هيا انقلع من هنا، إن لم يعجبك فقدم استقالتك، كفى..

عاصم بيك خرج متهاوياً ذهب إلى غرفته نظر إلى طاولته الكبيرة الضخمة، كانت جميلة، غرفة نومه لم تكن بكبر طاولته، لا ، لن يجد في مكان أخر مثل هذا الاحترام، جلس خلف طاولته وبدأ بالعمل.

- منذ ذلك اليوم لم تكبر طاولة عاصم بيك أكثر.

النخ...

سأل أحدهم عنصر الجمارك

- هل وصلت الفئران؟.

أجابه الجمركي:

- ماذا؟... فئران؟.

- نعم الفئران، أرسلني رئيس الأطباء مستعلماً لأنها ستستخدم لحاجة المشفى.

قهقه جميع عناصر الجمارك الذين كانوا في الغرفة، واضح أنه من المجانين المسالمين الذين لا يؤذون أحداً، يبدو أنه فقد عقله من أجل الفئران.

استمرت سخريتهم لفترة من الزمن، إذ إنه اعتاد زيارة مركز الجمارك يومياً

في اليوم التالي سألهم:

- هل وصلت الفئران؟.

- وماذا ستفعل بها؟.

- سيتم إكثارها.

تضاحكوا وسأله أحدهم:

- هذا يعني أنكم ستفتتحون مزرعة لإكثار الفئران؟.

علق آخر:

- وقد يحلبونها كالأبقار.

بينما نصحه ثالث:

- يا صديقي الفئران كثيرة هنا في المستودع، لمَ لا تجلب مصيدة وتصطاد أربعين، خمسين فأراً.

أجابه الرجل:

- وما حاجتي بالفئران، كل ما هنالك، أن الأطباء طلبوا مني ذلك.

- كدواء يعني؟.

رد عليه آخر ساخراً:

- بالفعل يمكن استخدام صغار الفئران للعلاج.

- لا، الفئران مريضة وهم سيعالجونها

- وقد يجرون عليها العمليات الجراحية.

أكثر الرجل من زيارته خلال الأيام الأربعة الأخيرة، وفي كل مرة كان عناصر الجمارك يقهقهون ساخرين.

في اليوم الخامس رست سفينة فرنسية في الميناء، خرج أحدهم من السفينة يحمل قفصاً فيه أربعة عشر فأراً، وما أن دخل صالة الجمارك حتى تبدلت الأمور، إذ إن هذه الحيوانات الأليفة لا تشبه فئراننا الرمادية اللون، بل بيضاء تتراكض وتلعب داخل القفص المعدني.

ربما لغاية ذلك اليوم لم يدخل قسم الجمارك مثل هذه الفئران، تحلق جميع عناصر الجمارك حول القفص، حتى المدير خرج من غرفته ووقف فترة طويلة أمام الفئران البيضاء.

تبين بعد ترجمة الوثائق المرفقة أن هذه الفئران قدمتها فرنسا كهدية لإحدى المشافي التركية.

في اليوم التالي تغيرت معاملة عناصر الجمارك لذلك الرجل عند ما قدم صباحاً، وقبل أن يسألهم عن الفئران أجابوه:

- لقد وصلت الفئران.

هرع الرجل وهو يردد «سأتصل بالطبيب وأعلمه بذلك».

أتى طبيب شاب برفقة شخصين آخرين صباح اليوم التالي، والتقى بالمدير مبرزاً وثيقة كانت بحوزته، أعلمه أن هذه الفئران ضرورية جداً للمشفى إذ سيتم إكثارها لإجراء الاختبارات والأبحاث العلمية عليها.

وبينما كان الطبيب الشاب يشرح له حيثيات الموضوع، بدت علامات التفكير على وجه المدير وهو يقضم القلم الذي كان بيده، وردد قائلاً:

- نعم... نعم.

سأله الطبيب:

- وهل نستطيع استلامها؟.

أجابه المدير:

- كنت أفكر في هذا الموضوع، لكن على أي بند جمركي سيتم ذلك؟.

- ماذا تعني؟.

- أقصد على أي بند جمركي سيتم تسديد الرسوم الجمركية المترتبة؟، فالقانون لم يلحظ الفئران في مواده.

- لكن..

- نعم أعرف أنها هدية... لكن لا بد من تسديد الرسوم الجمركية.

- لكن يا سيدي..

- نعم أعرف...

هم محقون.. من أين لهم أن يفكروا بأنه ذات يوم سيتم استيراد الفئران من فرنسا.

- حسناً ولكن...

- سنجد حلاً بالتأكيد.. وهذا ما أفكر فيه لكن كيف؟.، تقدرون موقفنا، كل بضاعة مستوردة لا بد من تخليصها جمركياً

وتسديد جميع رسومها.. والقوانين التي بين أيدينا لم تلحظ الفئران.

- لكن يا سيدي

- نعم أعرف، لكنكم تقدرون موقفي.

عاد الطبيب الشاب إلى المشفى، وشرح الموقف لرئيس الأطباء، الذي قام بدوره بالاتصال بالجهات العليا كي يتم إخراج الفئران من مستودع الجمارك، والجهات العليا بدورها وجهت رئيس الأطباء ومدير الجمارك بضرورة إخراج الفئران بالسرعة القصوى لتوضع تحت تصرف المشفى.

لكن ما عسى مدير الجمارك أن يفعله؟.

في اليوم التالي لم يتم اتخاذ أي إجراء إذ إنه كان يوم عطلة أسبوعية.

في بداية الأسبوع قام الأطباء بإعداد التحضيرات، لكن على ما يبدو أن الطب اصطدم بالقانون كل واحدٍ منهم ينظر إلى الآخر على أنه غير محق، الحقوقيون بالأطباء والأطباء بالحقوقيين، وكلا المجموعتين تهدفان إلى هدف واحد وهو إخراج الفئران من المستودع، لكن كيف؟.. هناك قانون ينظم عمل الجمارك، وهذا القانون يحتوي على بنود.

اجتمع خبراء الجمارك لاتخاذ القرار المناسب، في البدء قام المدير بشرح الموقف:

- كما تعلمون فإن القانون لم يلحظ الفئران في بنوده، الرسوم على الدجاج مجيدي واحد، أما الطيور الداجنة مثل الإوز والديك الهندي بثلاثة مجيديات، أما الخراف والماعز فليرة ذهبية واحدة، والحيوانات الكبيرة مثل البقر والثيران والجاموس فخمس ليرات ذهبية على الرأس الواحد، أما أمهات الأبقار فعشر ليرات.

سأله أحد الخبراء مستفسراً:

- ألا يوجد حيوان يشبه الفأر؟.

أجابه المدير:

- الأفاعي المستوردة لاستخدامات الألعاب البهلوانية رسومها ليرة ذهبية.

سأله جمركي مخضرم:

- والعصافير؟!!.. ألا يمكن اعتبار الفأر عصفوراً؟.

- العصافير مجيديتان.. والأسماك عشرة قروش.

- أفضل شيء هو إطلاق سراح الفئران من القفص، ليقوم الأطباء فيما بعد بالإمساك بها.

اعترض المدير على هذا الاقتراح قائلاً:

- كان ذلك ممكناً لو لم يتم إدخال القفص إلى قيود المستودع، أما الآن فلا يمكن، طالما أن الفئران دخلت قيود الجمارك، لا بد من تخليصها أصولاً، إخراج الفئران من قفصها بهذه الطريقة يستوجب المسؤولية، وإلا اعتبرونا مساهمين في عملية تهريب الفئران من داخل المستودع.

سأل جمركي مخضرم:

هناك طريقة.. نحتسب رسوم الفئران على أساس الخرفان، فكم يساوي حجم الفأر قياساً بحجم الخروف؟.

- لم الخرفان وليس الماعز؟.

- يا عزيزي لا يمكن احتساب الرسوم الجمركية على أساس أحجام أو أوزان الحيوانات، فكما تعلم إن الرسوم على العصفور ليرة ذهبية. حاول جميع خبراء الجمارك بنية طيبة تخليص الفئران، إلا أن أيديهم كانت مكبلة بالقوانين.

غادر الجميع دون التوصل إلى قرار مناسب، لذلك لم يجدوا سبيلاً سوى الكتابة للوزارة حول الصعوبات التي اعترضتهم.

لكن ما الذي عساها أن تقوم به الوزارة، هل ستسن قانوناً جمركياً خاصاً يخص الفئران؟!.

وصلت رسالة إلى الوزارة التي تتضمن ما يلي:

بما أن المواد الجمركية لم تلحظ الفئران في بنودها، لكن يمكن الاستفادة من المادة التي تنص على ما يلي:

«يتم احتساب الرسوم الجمركية على السباع والنمور والفيلة.. الخ بخمس ليرات ذهبية، وانطلاقاً من ذلك وبخاصة كلمة الخ يمكننا احتساب الرسوم الجمركية للحيوانات التي لم يرد ذكرها في القانون الجمركي...»، وهكذا اتخذت اللجنة قرارها واعتبرت أن الرسوم الجمركية على الفئران انطلاقاً من كلمة الخ هي خمس ليرات ذهبية.

اعترض الأطباء على هذا القرار.

وصل هذا الاعتراض إلى السيد الوزير بشكل أو بآخر.

اتخذ الوزير قراره بما أن هذه الفئران هدية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ستستخدم من أجل الأبحاث الطبية العلمية، لذا لا بد من تسليمها للأطباء بلا رسوم.

توجه الأطباء فرحين لاستلام الفئران إلا أنهم لم يستطيعوا ولم تكتمل فرحتهم إذ إن الفئران فارقت الحياة منذ أسبوعين ولا أحد يستطيع الاقتراب من القفص بسبب الرائحة النتنة.

و هكذا دخلت الفئران البيضاء من فصيلة «KOBY» إلى بلادنا لأول مرة.

أعبر لك عن احترامي الشديد

استيقظت متأخراً، قلت لم لا أتمتع في هذا الفندق النظيف، بداية حلقت ذقني، ومن ثم دخلت الحمام، رن جرس الهاتف، خرجت مبللاً كي أجيب وإذ بموظف الاستعلامات يقول لي:

- أحدهم يود التحدث إليك.

شعرت ببرد خفيف وانتفضت مثل دجاجة مبللة لأنني كنت عارياً ومبللاً.

سألته:

- من هو؟.

فهمت عبر سماعة الهاتف أن موظف الاستعلامات سأل ذلك الشخص ثم أجابني:

- إنه أحد معجبيكم، ويرغب في التحدث إليكم.

لو كان أحداً غيره لرددت عليه، وعلى الأقل كنت قلت له لينتظرني في الردهة سأتيه حالاً لكن عندما عرفت أنه من المعجبين أختلف الأمر. ثمة ارتعاش أصابني من ظهري حتى أسفل قدمي، وبسبب هذا الارتعاش سال عليّ رذاذ مثل المطر من القطرات التي انبجست من جسدي، فقلت له:

- اعطه السماعة.

سمعت عبر الهاتف صوت معجبي:

- هل أنت حسن أفندي ذو المقام العالي يا سيدي؟

«أوووو» في هـذه اللحظـة اجتاحـت كيـاني موجـة ارتعـاش، معجـبي كان يمتلك صوتاً أجشاً مشبعاً، واضح مـن صـوته أنـه شـخص سمـين قـوي البنية...

بداية أنـا لا أحـب أن يخـاطبني أحـدهم بعبـارات التعظـيم «ذو المقـام العالي» لأنك إن شئت أو أبيت ستـرد عليـه بـ «محسوبكم» أو «استغفر الله» وهذا شكل من أشكال المجاملة الفارغة.

- نعم محسوبكم.

عندما أتحدث بمثل هذه العبارات أشعر أن صوتي غريب عني.

- حسن أفندي، عندما علمت بنبأ قدومكم هرعت لمقابلتك فأنا من معجبيكم.

بردت كثيراً، أسناني تصطك ببعضها.

- استغفر الله يا سيدي «ها، ها تشوك».

اختلطت السوائل التي تسيل مـن أنفـي ومـن فمـي، مسحتها بسماعة الهاتف، عظام فكي تؤلمني.

- أخشى أن لا أكون قد أزعجت مقامكم العالي.

ها، ها، هتشوك، لا، لا أشكرك على مكالمتك.

ارتجفت من البرد، إذ أصبح شعر رأسي مثل شوك القنفذ.

- أخشى أن لا أكون قد أيقظتك من نومك.

- لا.

- لم تكن نائماً أليس كذلك

- لا، لا هتشوك، لم أكن غافياً.

- سررت كثيراً، فنحن نحبك كثيراً، نحبك من خلال كتاباتك.

- سلمت وعشت.

- أنت لا تعرفنا، لكننا نعرفك بشكل جيد يا حسن أفندي.

- أش، أش، أشكرك.

من شدة البرد شعر بدني أصبح مثل الشوك.

- هل يمكننا اللقاء بك الآن؟.

- ها، ها، تشوك.

- هل يمكننا اللقاء بك الآن ونكون ممتنين فيما لو وافقت أن يكون لنا شرف تناول طعام الغداء معكم؟.

- استغفر الله

- من فضلكم؟.

- تحرجونني بذلك.

- إنه شرف عظيم ومكرمة مثلى فيما لو وافقتم؟.

- ليطل الله عمركم.

طوال حياتي لم أمارس طقوس المراوغة والتملق، كل هدفي أن أنهي مكالمتي هذه.

بما أن محدثي هو من معجبي، لذلك لم تكن لدي الجرأة لأقول له إنني أغتسل دع المكالمة لما بعد أو «أوجز في حديثك» لذلك فأنا أرتجف من البرد وقطرات الماء تخط خطوطاً سائلة على جسمي.

لا أدري كم استمرت المكالمة، عشرين دقيقة، نصف ساعة بعد ذلك كان معجبي سينتظرني في بهو الفندق، هرعت إلى الحمام بعدما وضعت مسماع الهاتف، لكن لسخرية القدر لم أستطع تعديل حرارة الماء فهي إما ساخنة جداً وأسلق بحرارتها أو باردة جدة وأتجمد بسببها، فالصنابير في بلادنا لا تعاير الماء، على كل اغتسلت ما بين الانسلاق تارة والتجمد تارة أخرى، ارتديت ثيابي بعد تجفيف جسدي ونزلت إلى بهو الفندق، كان هناك أربعة أو خمسة أشخاص جالسين في البهو، سألت موظف الاستقبال:

- من الذي سأل عني؟.

- ها هو يا سيدي..

اللّه اللّه ذلك الصوت كان يشبه البورظان، لكن كيف يمكن أن يصدر من هذا الرجل؟.

اتجهت نحوه وقلت له:

- يا سيدي، أنا حسن.

راح يرمقني بنظراته متفحصاً من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي، على ما يبدو فإن شكلي لم يملأ عينيه، ترى هل هو على ما يبدو أنه نادم لتلك المجاملة، ومحادثته لي عبر الهاتف باحترام؟ ولكن طالما أنه حدثني باحترام فلم يكن لديه إمكان للتراجع. لذلك نهض واقفاً:

- آه يا سيدي، آه يا سيدي، لو تعرفون مدى السعادة التي منحتمونيها وأي شرف أعطيتموني من زمن بعيد ونحن نترقب زيارتكم، تفضلوا، أرجوكم تفضلوا..

احتفاء بي دفعني كي أسير أمامه، وبين الفينة والأخرى كان يمسد ثيابي، وأحياناً أخرى يمسك ذراعي، يقوم بهذه الحركات لكن عندما يشعر أنها لا تنم عن الاحترام كان يتخلى عنها فوراً، وهكذا خرجنا من الفندق.

- حسن أفندي، إذا أمرتم فلنذهب إلى نادي المدينة.

- استغفر اللّه..

- كيف تأمرون؟.

- كما تودون يا صاحب المقام العالي.

- كما تطلبون يا سيدي

نعم هكذا أصبحت متملقا ومدعياً.

أمسكني بذراعي اليسرى، ثم راح يسير خلفي تماماً، كنت على وشك الانفجار من شدة الغيظ، لم يكن النادي بعيداً، دخلنا صالة المطعم:

- تفضلوا واجلسوا يا سيدي.

ثم جرّ الكرسي الذي سأجلس عليه إلى الخلف ودفعه إلى الأمام كي أجلس، كان الشعور بالغيظ يمزقني، ناولني قائمة المأكولات، وسأل:

- ما الذي ترغبون في تناوله!

- مثل ماذا يعني؟.

- من المشروبات؟.

- شكراً أنا لا أشرب نهاراً.

بدأنا بتناول الطعام، وأنا خجل من فرط احترامه.

لم أفهم هل كنت أتناول الطعام أم أتلقى ضربات العصي. أمسك بذراع أحد المارين من جانبنا وقال له:

- انظر إلى المفاجأة أتعرف من هذا السيد؟.. إنه حسن أفندي.

- لاه!!!!!!!!، ما شاء الله يا سيدي، ما شاء الله.

كان هذا الشخص أنيقاً في ثيابه متقدماً في العمر، يبدو عليه الاحترام والوقار وهكذا كنت مع متملق واحد بواحد والآن أصبحا اثنين، «محسوبكم»، «محسوبكم» يا ذا المقام العالي «استغفر الله» «إحسانكم معروف يا سيدي».. وما شابه، انزعجت كثيراً.

- كيف تكتبون أعمالكم يا سيدي؟ محير والله.

سأختنق وأنفلق، ليس السبب أنني لست مسروراً من سماع مثل هذه المدائح والتملقات، غير أن ابتسامة خجلى ارتسمت على وجهي.. كلاهما سوية، كنا مع واحد وأصبحنا مع اثنين.:

- لا ، لم نسأل عن مستوى كتاباتك ، تعجبنا أم لا ، بالعكس تماماً ، بل السؤال كيف تقومون بعملية الكتابة؟.

- بشكل اعتيادي ، وأكتب بشكل عادي جداً.

- أنت معطاء يا سيدي ، كيف تكتب كل هذا الكم من الأعمال ، هل في الأمر سر ما؟.

- يا سيدي ، سر ذلك هو الإملاق والحاجة ، بيتنا ضيق والمعيشة صعبة وبما أنني أعاني بشكل دائم ، لذلك أكتب بشكل دائم ، والله إن السبب ليس السعادة والسرور.

- هيه ، هيه ، كه كه كه «يضحك» لكن هذه الكتابات لا يبدو منها أنك كتبتها مرغماً.

يضحك الثاني:

- ليديم الله عليك الضيق يا «حسن أفندي» ويكمل قهقهته.

بينما يقول الأول:

- إنها موهبة من عند الرب.

- لا ، لا والله ، بل أكتب بسبب ظروفي الصعبة.

اعترضا طريق اثنين كانا يمران من جانبنا وأجبراهما على الجلوس معنا:

- إنهما من المعجبين..

- شكراً. الله.. شكراً.

كلما ازداد عدد الجالسين معنا كلما أرتاح ذلك الذي تعرف علي بداية وقال:

- أنا لا أحب عبارات التملق والتبجيل لذلك ساعدوني على أن لا نتحدث بمثل ذلك.

الله يرضى عليك

قلت له:

- ما الداعي للرسميات؟

بعد ذلك راح يناديني بحسن بدلاً من حسن أفندي:

- حسن.

- نعم يا سيدي.

- ما اسم مهنتك التي كنت تعمل بها؟... يعني بهذا الحد إذا كان بالإمكان.

كلما خضنا في الحديث أكثر، كلما راح يبسط مستوى الحديث أكثر:

- حسونتي.

- نعم يا سيدي.

- ولك أنت كيف تكتب كتاباتك؟

- والله لا أعرف، أكتب وحسب، هذه مهنتنا.

بعدما انضم شخصان آخران إلى مجلسنا، أضفنا طاولة أخرى.

قال ذاك الذي دعاني إلى النادي:

- ولك هذا الحسن، يكتب، بقوة، كاتب حقيقي.

ثم التفت نحوي:

- حسن أفندي.

- نعم يا سيدي.

- ولك أنت كتبت عملاً بعنوان «كيف تشتري قارباً»، أتتذكره؟

- نعم.

- ولك أي عمل كان؟!... واه الله يلعن أم...

ربت أحدهم على كتفي وقال:

- كاتب، ما شاء الله وأي كاتب

- ولك حسن
- نعم يا سيدي
- ولك كيف تكتب بهذه الغزارة، واه
أحدهم رد عليه بدلاً مني:
- الكاتب عديم الشرف، الكاتب...
انزعجت لكنني لم أتفوه بأية كلمة ولم أظهر انزعاجي
أحدهم راح يمسد على خدي:
- كتاباته مثل السم هذا الابن الحرام.
لم أعد أفهم هل هم يسخرون مني ومن كتاباتي، أم أنهم جادون فيما يقولون.. وحتى لو فهمت فماذا عسى أن أفعل؟... لا شيء طالما أنني وقعت في ساحة مقصات ألسنتهم.. حتى أنهم لم يعودوا يذكرون اسمي:
- «ولك».
هذه المرة لم استطع الرد بعبارة نعم يا سيدي:
- ماذا هناك، ماذا تريد؟.
- كتاباتك...
- إيه، وما بها؟..
- والله كاتب، عديم الضمير كتب مادة منذ فترة..
تأهبت للكلام مظهراً بعض الجدية، غير أني لم أستطع بسبب لطمة على عنقي.
- ولك يا نذل، أيها السبع المقدام.
- استغفرك يا رب...
وكزني الجالس بجانبي، وكزة مؤلمة كادت أن تخرجني عن طوري. ولم يصدر عني من شدة الألم سوى «هيه»:
- «و لك» أيها المنحط إنك تستسهل الأمور..

انتهينا من تناول الطعام منذ فترة طويلة، وقفت، وبكل جدية ووقار قلت:

- عن إذنكم.

- يوه ه ه، وهل تفكر بأننا سنتركك تذهب بسهولة؟.

ضربني أحدهم على عنقي، وأخر على ظهري وثالث شدني من يدي ورابع التصق بيدي.

صرخت بأعلى صوتي:

- اتركوني لأذهب.

- إن ذهبت ستكون أحط وأحقر إنسان في العالم.

جلست، امتدحوا كتاباتي، لكن أي مديح، مديحهم مثل تلك المادة التي يقولون عنها في قانون الجزاء التركي.

بعد فترة قال الذي تعرف عليّ بداية:

- كفى لا تنفخوه مديحاً مثل الطبل، إنه يكتب لكن أية كتابة...

- أبي يستطيع أن يكتب مثله.

- ليس لدي الوقت الكافي، لو كان لدي متسع من الوقت لكنت...

- هل يستطيع هو أن يقوم بأعمالنا كما نقوم...

وكزني الجالس عن شمالي، بينما لطمني الجالس عن يميني على عنقي وقال:

- ولك أليس كذلك.

استجمعت كل قواي «يا الله، يا حضرة مولاي» وصفعت الجالس على يميني بكل ما أوتيت من قوة، والجالس على يساري لطمة على عنقه وصرخت بأعلى صوتي:

- طبعاً تستطيعون الكتابة يا أبناء «الهيك وهيك»..

قهقه الجميع:

- لا «ولوه»، لا نستطيع الكتابة كل ما هنالك أننا نمزح ونثرثر.

و احد آخر قال:

- أنا حتى الرسالة لا استطيع كتابتها.

تبادلنا المزاح لمدة ساعتين، بعد ذلك رافقني الجميع إلى غرفتي في الفندق، ساعتين وأكثر وجو من المرح يلف حديثنا.

ارتفعت درجة حرارتي إلى ٣٩.٥ على الأغلب أخذت برداً من الحمام، جاء الجميع لزيارتي، كانوا يحومون حولي مثل الفراشة، البعض منهم استدعى الطبيب والبعض الأخر جلب الأدوية

و البعض ساعدني في حقن الإبرة.

لم يغادروا غرفتي طوال يومين، معروف أسدوه إلي لا ينسى، عند مغادرتي الفندق جاء كل واحد منهم وبيده هديته ليودعني، رافقوني حتى موقف الباصات وانتظروني في المحطة أعتقد أن انتظارهم دام لمدة نصف ساعة، كان المطر يهطل بشكل غزير، توسلت أن لا ينتظروني كي لا يتبللوا، لكن لا أحد منهم غادر المحطة، كانوا يتحدثون معي بلباقة واحترام، أقلع الباص وهم يلوحون بأيديهم مودعين قال لي ذلك الذي زارني في الفندق:

- حسن أفندي، لا تنْسَنا.

الآن استلم منهم جميعاً الرسائل وجميعها تبدأ بـ «المحترم كثيراً، حسن أفندي» وتنتهي الرسائل بـ «أعبر لك عن احترامي الشديد».

أصمّـــان

أتـألم كـثيراً مـن معـدتي، لـذلك كنـت أتمنـى المـوت، انهكـتني معدتي، بت لا أستطيع تحمل الألم أكثر، خاصة بعدما قطعت الأمل من جميع الأطباء الذين زرتهم، لذلك لم يكن أمامي إلا الدعاء لله، ليس طلباً للشفاء بل طلباً للموت، نصحني أحد الأصدقاء:

- لم لا تذهب إلى «الدكتور» أحمد عاصم، فهو طبيب مشهور، ولا أحد يفوقه خبرة.

- وأين أجد البروفيسور أحمد عاصم؟.

- إنه رئيس الأطباء في مشفى.

- هل لك أن تعرفني به؟.

- إنه صديق مقرب، سأتصل به هاتفياً وأقول له بأنك ستزوره كي يهتم بك أكثر.

- الله يرضى عليك.

- إنه أصم، لكنه ليس كباقي الصم، فلو أطلقت رصاصة بجانب أذنه لما سمع، لذلك يجب أن تقترب من أذنه. وتصرخ بأعلى صوتك، وبغير هذه الطريقة لا يمكن أن يسمعك.

وضـعني صـديقي في صـورة صـمم الطبيـب، وخـشية مـن أن لا يساعدني صوتي في تعريف الطبيب على حالتي الصحية، طلبت من صديقي أكرم مرافقتي إليه، أكرم هذا صوته أجش وضخم، فلو تحدث بصوت منخفض لارتج زجاج النوافذ، ولو تكلم داخل غرفة

لسمعته في أول الشارع، صوته ليس مسموعاً للصم فحسب، بل للموتى أيضاً.

ذهبت برفقة صديقي أكرم إلى المشفى، وهناك سألت عن غرفة رئيس الأطباء، على باب الغرفة التي أرشدونا إليها علقت لوحة كتب عليها «رئيس الأطباء»، دخلنا الغرفة دون أن نقرع الباب، لأنه على أية حال لن يسمع صوت طرقاتنا، عند دخولنا كونت من يدي اليمنى بوقاً وأطلقت العنان لصوتي:

- مرحباً يا سيدي

- اندهش البروفيسور أحمد عاصم، لكن يبدو أنه لم يسمع صوتي، لذلك وكزت صديقي أكرم لأني من دون مساعدته سأفقد حنجرتي لا محالة، وهذا يعني أنني لن أستطيع شرح حالتي الصحية، صرخ أكرم مثل «البورظان»:

- مرحباً.. مرحباً يا أفندي..

ضحك البروفيسور أحمد عاصم، ويبدو أنه سمع ما قاله أكرم، هو بدوره جعل من يده مثل البوق وصرخ:

- الثقب مهما كان صغيراً لا أريده.

كان يصرخ لدرجة أن صراخه كان أعلى من صراخ أكرم، تبادلنا النظرات أنا وأكرم مندهشين، قلت لأكرم:

- عن أي ثقب يتحدث؟.

- على الأغلب سيجري لك عملية جراحية.

- لكنه لم يعايني، وسيعالج الثقب مباشرة، اقتربت من أذن رئيس الأطباء ثم صرخت بأعلى صوتي بعد شهيق عميق:

- هل عرفتني؟.

شاطرني الحركة ذاتها وصرخ:

- نعم عرفتك، أعلموني عن قدومك عبر الهاتف.

كان صوته عالياً لدرجة أنني خشيت على أغشية أذني من أن تتمزق. ثانية جعلت من كفي بوقاً، وصرخت في أذن الطبيب بكل قوتي:

- أي ثقب؟.

تجاوزني الطبيب بشدة صراخه.

- سنسد، جميع الثقوب ستُسد... لا أريد سيلانات.

- لا أشكو من سيلان

- لديك.. لديك.

- وهل ستعرف أكثر من الطبيب؟ - هذا ما قاله أكرم _ إنه متخصص، وعرف ما تشكو منه من النظرة الأولى، وهل ستعرف أنت أم الدكتور إن كان في معدتك سيلان أم لا؟.

- ولك أكرم بُح صوتي من شدة الصراخ، تعال واصرخ أنت.

اقترب أكرم من أذن رئيس الأطباء وصرخ:

- ألن تكشف عليه؟.

أجابه الطبيب صراخاً:

- يلزمـــه.

ثلاثتنا كنا نتبادل الصراخ لدرجة أن صراخنا كان أعلى من صراخ جمهور ملعب كرة قدم مكتظ بالجمهور، ثمة صفير وطنين في أذني

- هيا لنصعد كي تشاهدوا الثقوب.

قال لي أكرم:

- على الأغلب أنه سيصورك بالأشعة، لأن الأشعة تكشف جميع الثقوب...

سألت الطبيب:

- إلى أين؟.

ألصق فمه بأذني وصرخ:

- للمعاينة الطبية.

خرجنا من الغرفة، وعبرنا الممر، الطبيب في الأمام ونحن نتبعه صعدنا إلى أعلى طابق ومن ثم إلى التيراس ثم وجدنا أنفسنا على سطح المشفى. كنا على مقربة من سطوح مرسيليا القرميدية الطبيب يصرخ بنا ونحن بدورنا نصرخ به:

- دكتور أفندي.

- لن يبقى ثقب واحد.

- إن شاء الله، بجهودكم.

- السيلان لا أرضى به..

- ليرض الله عليك.

بينما كنا على سطح المشفى ونحن نصرخ بأذن الطبيب، والطبيب بدوره يصرخ كذلك، بدأت أصوات تتناهى إلينا من حديقة المشفى:

- رئيس الأطباء يتشاجر..

- هيا أركضوا

- صعدوا إلى السطح

- مع شخصين

- هيا اركضوا إنه يتشاجر.

كنا نتبادل الصراخ على السطح لدرجة أن أصواتنا كانت مسموعة للأسفل، وكلما اقتربنا من أذن رئيس الأطباء، وكفينا مثل البوق ظنوا بأننا نضرب رئيس الأطباء، صعد فوراً خمسة، ستة أشخاص إلى السطح، سأل أحد الأطباء الذي كان مرتدياً مريلة بيضاء، ويضع على جبينه مرآة الكشف:

- «شو في»، ماذا جرى؟

رد عليه رئيس الأطباء:

- لا شـي، التعامـل مـع الـصم في غايـة الـصعوبة، لقـد رممنـا سـطح المشفى عدة مرات، لكن دون فائدة، عند هطول رذاذ مطـر فإنـك تجـد مـاء المطـر «يـدلف» عبر السطح، أحـد الأطبـاء يعـرف صـانعاً مـاهراً، وهاهمـا، لكنـه نـبهني عـبر الهـاتف وقـال لـي سمعـه ضـعيف جـداً، لـذلك لا بـد مـن الصراخ عند أذنه.

سأل ذلك الطبيب الذي يضع مرآة الكشف على جبينه:

- وهل كلاهما أصمان؟.

رد عليه رئيس الأطباء:

- هكذا على ما يبدو، فإنني أصرخ بأعلى صوتي، حنجرتي كـادت أن تتمزق لكن دون فائدة والله لو كان حماراً لفهم، أما هذان فلا.

تبادلنا النظرات أنا وأكرم.

الطبيـب ذو المريلـة البيـضاء وظنـاً منـه أننـا أصـمان ولـن نـسمع مـا سيقوله:

- أنا لا أثق بهما.

ثم أشار نحوي وأردف قائلاً:

- بخاصة هذا القصير ذو الشكل المضحك... أما الآخر، فواضح أنـه مُنقَذ من حبل المشنقة أو الخازوق.

قال أحد المواطنين وهـو وسـيم لدرجة أن المرء ليفضل أن يموت بـين يديه:

- سيدي رئيس الأطباء، أنتم تـصرخون عليهـا لأنهمـا أصـمان، لكـن لمَ هما على الدوام يصرخان عليك..

رد عليه البروفيسور أحمد عاصم:

- هكـذا هـم الـصم، بمـا أنهـم لا يـسمعون فـإنهم يظنـون أن الجميـع كذلك، ويتكلمون بصوت عالٍ.

- ما وثقت بهما بتاتاً، إنهما كما يقول المثل «مقطعين موصلين».

- انظر، نظراتهما مثل نظرات الذئب.

ثانية قام رئيس الأطباء بتشكيل بوقٍ من كفيه ليسندهما قرب أذني وصرخ بأعلى صوته:

- إن لم تسدوا جميع الثقوب فلن أدفع قرشاً واحداً.

شتمونا كثيراً، لذلك لم يبق أمامنا إلا قبول صممنا، ولو قلنا لهم بأننا نسمع بشكل جيد، فهذا يعني أننا تحملنا كل شتائمهم، وبذلك سنعرضهم إلى موقف مخجل، أفضل شيء أن نتظاهر بالصمم، اقتربت من أذن رئيس الأطباء وصرخت بكل ما أوتيت من قوة:

- هاهههه؟

أجابني صارخاً:

- إن لن تسد جميع الثقـوب لن أدفع قرشاً واحداً.

ثم التفت نحو المجتمعين حولنا وقال لهم:

- الله يقطع عمره، شقت حنجرتي بسبب هذا «السرسري».

جميع الذين صعدوا إلى سطح المشفى، كانوا يقهقهون، ألصق أكرم فمه على أذن رئيس الأطباء وأطلق صرخة:

- لنجلب العدة كي نبدأ بالعمل.

نزلنا من السطح، سألني أكرم في الحديقة:

- ما هذه الوقاحة؟

قلت له:

- لم أفهم، إما أنها كانت مزحة، أو أن هناك خطأ ما.

أثناء خروجنا من المشفى سألنا البواب:

- ما اسم رئيس الأطباء؟

- راجي أفندي.

- وماذا جرى لأحمد عاصم.

- أحالوه على المعاش بسبب صممه، كان ذلك منذ أسبوع.

خرجنا إلى الشارع وإذا بشخصين كانا يركضان ليلحقا بنا، أحدهم صرخ في أذني:

- لقد تخلى رئيس الأطباء عن فكرة ترميم السطح، لا ير.. يد.

صرخ أكرم بصوته الأجش الحانق بعدما كادت مرارته أن تطق، جعل كفيه بوقاً وصرخ في أذن الرجل:

- وأنا هذا... رئيس الأطباء. وشتمه شتيمة قاسية.

أحد الراكضَين قال لصديقه:

- إن الصم لا يسمعون لكنهم يتوقعون مغزى الكلام، وقد ظن هذا أن رئيس الأطباء شتمه.

عيد الشجرة

الفندق الذي نزلت فيه مؤلف من أربع طبقات، غرفه فسيحة، أسرّته نظيفة، وما كنت أتوقع أن أجد فندقاً بهذا الرقي في مدينة صغيرة كهذه، يوجد في الأسفل مطعم واسع، ومكان لتناول الحلويات والمعجنات، وصالة «بوفيه» كبيرة واسعة.

مرت ثلاثة أيام على مجيئي، تناولت طعام الغداء في المطعم، ثم جلست في «بوفيه» على أريكة وثيرة أمام اللوح الزجاجي الكبير أنظر إلى الخارج.

شوارع هذا المكان هادئة تماماً، فليس هناك أي نشاط أو حركة غير طبيعية.

ثمة حركة غير طبيعية شهدتها المدينة، حركة ذهاب وإياب، شبان يتراكضون من جهة إلى أخرى، مجموعة رجال يحملون معاولهم ورفوشهم، وهناك من يدفع عربات محملة بالأسمدة والأتربة، وعربات أخرى محملة بالغراس، أطفال يبدو من ثيابهم أنهم تلاميذ، بيد كل واحد منهم غرسة أو غرستان أو معزقة، جميعهم يسيرون في اتجاه واحد.

و لكي أتبين ما الأمر، ناديت «النادل»، وسألته عما يجري، فضحك ضحكة استعراضية وقال:

- إنه عيد الشجرة، والناس جنوا من جديد.

- ما هذا الكلام؟.

- لا شيء، كل ما هنالك أننا نزرع أشجاراً في سبخة «يومرو»

كان يجلس خلفي شخص هرم على بعد طاولتين من الجانب الأيمن، طلب من النادل قائلاً:

- كأساً من الشاي.

ردد النادل طالباً من القهوجي:

- «كاسة شاي لهون»

ثم التفت الرجل نحوي وقال:

- واضح أنك غريب هنا.

- نعم، أنا هنا منذ ثلاثة أيام وسأبقى أسبوعاً ربما.

- عرفت أنك غريب من اهتمامك بالأشجار.

و بسبب صعوبة التفاتي وإدارة رأسي إلى الوراء قلت له:

- ألا تتفضل وتشاركني جلستي؟.

اقترب الرجل مني بينما جلب له النادل كأس الشاي.

- عذراً على السؤال، من أين أنت؟.

- من استنبول.

- إيه، أعرف استنبول، هي إحدى جنات الأرض، من يدري كم من الوقت مضى عليّ ولم أزرها، ألا يوجد عندكم عيدٌ للشجرة؟.

- لا.

- أدعُ لله في كل لحظة، فلو كان عندكم عيدٌ للشجرة، لما بقي لديكم شجرة واحدة يستظل كلب بظلها.

فهمت من حديثه أنه عدو للشجرة.

- لمَ هذا الكلام، فالشجرة...

مد يده بحنان أبوي نحو فمي.

- رجاءً اصمت، منذ ست سنوات ونحن نسمع هذه الكلمات، لا تتعب نفسك، لن يكون حديثك أفضل من حديث حسني بيك. لأن أفواهنا كلت من هذا الكلام..

مر من أمامنا عدد من الأطفال، يحملون الرايات، ويدفعون عربات يد مليئة بالغراس.

- واضح أنك رجل متعلم، هل تعرف أين تقع أكبر غابة في العالم؟.

حقيقة أنني لا أعرف أين تقع أكبر غابة، لكن ولكي لا يفقد ثقته بعلمي قلت له:

- أكبر غابة في الدنيا هي في أفريقيا.

و لكي لا تتزعزع ثقته بمعلوماتي، ومثل أي جاهل، عملت على تحويل الحديث إلى مجرد ثرثرة فارغة:

- غابات أفريقيا مرعبة، يقولون لم تطأها قدم إنسان ولم تلمس أشجارها فأس، تزاحمت الأشجار، واقتربت من بعضها حتى أنها التصقت، هذه ليست غابات، بل جدران شجرية، جدران لا يعرف طولها وعرضها، فلو مشيت فيها خمس سنوات، لما عرفت بدايتها من نهايتها، إن أقصر شجرة فيها يزيد طولها على مئة متر. لا يدخلها ضوء النهار، ولا تسير الحيوانات المفترسة فوق أغصانها، بل تمشي على قممها، هذه الغابات البكر التي لم تطأها قدم إنسان، لا يتجرأ إنسان على الاقتراب منها، بل يشاهدها بالمنظار، أشجارها في نمو دائم، أغصان من هنا وفروع من هناك. ذات يوم اقترب أحد الزنوج مضطراً على التبول، وعندما انتهى، استدار إلى الخلف فوجد نفسه محاصراً، إذ إنها زحفت باتجاهه لتحتجزه، هتف عبر جهازه اللاسلكي قائلاً:

«لقد دفنت داخل شجرة، وعلى بعد شبرين مني احتجز سبع، هو جائع وأنا جائع، ولديه من شدة الجوع الرغبة لكي يبتلعني، وأنا

كذلك، لكن الأغصان التي التفت علي وعليه، لا تسمح لنا بالحراك، كلانا نتبادل النظرات، ومن شدة الضيق رحت أعلمه الإنكليزية».

هكذا هي الغابة التي لم تمسها فأس.

كان الرجل مندهشاً من غزارة معلوماتي، فقال لي:

- رائع كل ما قلته، هذه الغابة التي حدثتني عنها، والتي لم تطأها قدم إنسان، لو ذهب حسني أفندي هذا الذي عندنا إلى هناك، وابتدع عيداً للشجرة، فو الله وبالله وتالله، وأنه خلال سنتين لن تبقى شجرة واحدة توحد ربها. هناك في تلك الغابة التي لم تمسها فأس، فقط خلال عيدي شجرة، يمحو الغابة من أساسها. ويحولها إلى بادية جرداء.

كنت «أمطر» عليه كذباً فإذا به يتفوق علي في ذلك.

- إذا كان لديك متسعاً من الوقت فلنذهب ولنر..

كم كنت تواقاً لذلك فأنا لم يسبق لي ورأيت عيداً للشجرة.

- لنذهب، هذا شيء حسن - قلت له -.

خرجنا سوية، لم نمش مسافةً أكثر من خمس دقائق، حتى وصلنا إلى ساحة تقع خارج البلدة. غُصت الساحة بالمحتفلين، علقت الرايات على الأعمدة، وفوقها توزعت اللافتات القماشية لتحيط بالساحة، وقد كتب عليها عبارات تتناول فوائد الأشجار،

و الغابات، ثمة منبر أخضر اللون نُصب في الجزء العلوي من الساحة، وهناك مجموعة من التلاميذ قد توزعوا على جانبي المنصة، وبيد كل واحد منهم غرستان،

أما فرقة البلدة الموسيقية فكانت في المقدمة.

و من العبارات التي خطت على اللافتات:

- الإنسان يتنفس برئتيه والمدينة بغاباتها

الشجرة رئة الوطن

سنحول «البوزكيري» إلى جنة غناء.

عافية الإنسان تظهر على خديه، وصحة البلاد تظهر من أغصان الأشجار.

من يحب الوطن يحب الشجر.

- وهكذا منذ ست سنوات، يجتمعون في أيار من كل سنة وتقام الاحتفالات باسم عيد الشجرة.

هذا ما قاله الرجل الذي اصطحبني إلى هنا.

كانت الساحة ممهدة محاطة من جهاتها الثلاث بتلال كبيرة، أما الجهة الرابعة فتطل على البلدة، هذه التلال الواسعة، كانت في الماضي مغطاة بالأشجار، لكن خلال فترة قصيرة لم يبق منها سوى تلال جرداء.

ظهرت سيارتان، توقفتا قرب المنصة، علا التصفيق للنازلين منهما، بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف نشيد ازمير، وأخذ الأطفال يلوحون بالرايات التي كانت بحوزتهم، وعندما توقفت الفرقة الموسيقية، صعد أحدهم على المنصة، وكان مكور الشكل.

لفت انتباهي محدثي قائلاً:

- هذا والينا. عيد الشجرة لدينا مثل فلم سينمائي، يعاد عرضه منذ ست سنوات، حتى أنني قد حفظته عن ظهر قلب.

بدأ الوالي كلمته قائلاً:

- يا أبناء وطني المحترمين، أبناء بلدتي الأعزاء.

راح يشرح أهمية الشجر والغابات ثم أردف قائلاً:

- في هذا العام، مثل كل عام، نفتتح احتفالنا بعيد الشجرة في مدينتنا، ونحن يا أبناء بلدتي باسم بلدتنا إذ نذكر غيرية حسني بيك.

بعدما ذكر فضائل حسني أفندي على هذه البلدة، نزل الوالي على صوت التصفيق، ليصعد شخص آخر باسم الوجه إلى المنصة، هذا الشخص كان حسني أفندي، كان يتحدث بشكل جميل، حتى أني لن أنسى كلماته أبداً:

- أعزائي المواطنين، هل يمكن للإنسان أن يحيا فيما لو انتزعتم رئتيه وقصبته الهوائية؟. بالتأكيد لن يعيش، كذلك البلد الذي تُقص فيه الأشجار والغابات، سنوسع غاباتنا، هناك ثلاثة أعداء للغابة، النار والفأس والماعز.

كانت كلمات حسني بيك، مفهومة وبسيطة، وهي تكتسب غنىً عندما يتفوه بها،

و قد تحمست له إلى درجة أنني لو رأيت في تلك اللحظة الجدي، العدو الأول لغاباتنا، لذبحته بسكين جيبي المثلم.

راح حسني بيك يذكر بالأمثلة دور الغابة في تحسين بيئة البلاد، يهب نسيم الربيع في القطبين المتجمدين بسبب الأشجار، كذلك الرطوبة المتوسطية المنعشة في السهول.

- مواطني الأعزاء! يبلغ عدد السكان أربعة وعشرين مليون إنسان، فلو زرع كل واحدٍ منا عشر شجرات، لتحولت بلادنا إلى غابة غناء.

في السنة الأولى غرسنا ألفي غرسة، وفي السنة الثانية ثلاثة آلاف غرسة، وفي الثالثة خمسة آلاف، وها نحن في هذا العام بمناسبة عيد الشجرة نغرس عشرة آلاف غرسة.

عند نزول حسني أفندي من المنصة. أعطى الوالي غرسة بطول متر ونصف، ليضعها في حفرة سبق حفرها، ويلقي فوق جذورها رفشاً من التراب، ليقوم الآخرون بتغطية الحفرة بالتراب. ثم يصب الوالي

دلواً من الماء في الحفرة، كانت آلات التصوير تعمل بجد، وتلتقط الصور، وهو يقوم بكل هذه الحركات. بعد ذلك ركب الوالي وحسني أفندي وكل من أتى معهما السيارات، وغادروا المكان. ومع مغادرتهم قامت القيامة، ومع حركة المعاول والرفوش، غطى الطين أرض الساحة، كل من يختطف غرسة يزرعها في حفرة، وأنا بدوري اختطفت من إحدى العربات غرسة كبيرة، وأدخلتها في إحدى الحفر. استمرت هذه الفوضى نحو نصف الساعة لينصرف الجميع جماعات وأفراداً.

ولم يبق أحد سوى عمال البلدية المعروفين من ملابسهم والبالغ عددهم خمسة عشر عاملاً، كانوا يجمعون الرايات واللافتات ويفككون المنصة ليضعوها في السيارة، وبذهابهم بقينا نحن الاثنين.

- كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟.

قلت له:

- نعم.

كان يضحك باستعراض.

- في كل عام، وحسب زعمهم يغرسون ألفي شجرة، خمسة آلاف، عشرة آلاف شجرة، أين هي هذه الأشجار؟.

- لا أدري.

- هكذا منذ ست سنوات، وهم يغرسون الأشجار هنا، هل تجد هنا شجرة واحدة، يطلقون على هذه السبخة «يمري باتاق» أي المستنقع المتدرج في الشتاء يتحول إلى مستنقع، وفي الربيع أرض طينية، أما في الصيف فتتشقق تربتها، انظر إلى هذه التلال، أرأيت؟.، جميعها كانت غابات، قلعوا أشجارها وزرعوها هنا، حقيقة لا أحد يغرس، كل ما هنالك أن يضعوها في حفرة عمقها شبر، وعند أول هبة ريح

تتهاوى الأشجار إلى الأرض والتي تصمد أمام الرياح، تجف في أول أسبوع.

مشينا سوية إلى أن وصلنا إلى «كافتيريا» الفندق.

قلت له:

- الماعز خطر.

و هكذا أصبحتُ عدو الماعز...

- هذا الرجل الذي اسمه حسني بيك أخطر من الماعز، إذ إن الماعز يعتبر أمامه ملاكاً. ألف من الماعز لا يمكن أن تقوم بما قام به، اسمعني لأشرح لك من هو هذا الـ «حسني بيك»، يقال أنه من هنا، غادر البلدة عندما كان صغيراً ولم يعد إليها. عمل موظفاً لحماية الغابات، لم يسمح للقرويين باقتطاع غصن شجرة واحد، ولا حتى شجيرة صغيرة. يعجبك ذلك؟. استشاط القرويون غضباً، نصبوا له داخل الغابة شرك الضباع، أتعرف ما هذه المصيدة؟. عندما تقع في الشرك، يعني أنك هلكت لا محال، ولا يمكن أن تنقذ، تتألم وكأنك سقطت بين مخالب عزرائيل. أعد أهل القرية هذه المصيدة، وغطوها بالأغصان بشكل جيد، ثم أمسك كل واحد منهم فأسه وراحوا ينهالون على جذوع الأشجار، أصوات ضربات الفؤوس كانت تصدح في كل مكان، أرسلوا واحداً منهم كي يشي بهم، في المنطقة الفلانية، يتم قطع الأشجار! ركب حسني بيك حصانه، واتجه نحوهم توقفوا، من أنتم؟، تعالوا إلي، لم يكترث أهل القرية بنداءاته، بل استمروا بإعمال فؤوسهم، اتجه حسني بيك نحوهم، وعندما وقع في الشرك راح يخور مثل العجل، استمر أهل القرية بالتحطيب والتقطيع، وكانوا كلما رغبوا في التدخين، اقتربوا من الحفرة التي سقط فيها ليسخروا منه:

- مرحباً حسني بيك، ما هي الأخبار؟.

يستنجد حسني بيك:

- أنقذوني، استجير بكم، لن أتدخل في شؤونكم.

هو يصرخ وأهل القرية لا مبالين.

- ها، قل لنا حسني بيك، هل ستقبض الرشوة.

- لتعم عيناي.

- هل ستكررها؟.

- توبة نصوحا.

- هل ستطردنا لأننا احتطبنا.

- توبة.

و كلما صرخ حسني بيك متألماً أجابوه:

- حسني بيك أبدل مقامك وغن غير هذه الأغنية، لقد مللنا من هذه.

عند المساء حمل القرويون حطبهم وعادوا، سمع أحد المارة صوت المسكين وأناته، فأنقذه من مصيدة الضباع.

سقط حسني بيك مريضاً، ولزم الفراش لمدة أسبوع، وبعده استشرى حسني بيك، وراح يقبض الرشاوى على الطالع وعلى النازل ولم يعد يكتفي برسم حماية الغابات، ومن لا يدفع يقبض عليه، ويعلق من قدميه إلى السقف.

ثانية قام القرويون بإيقاعه في شرك الضباع.

- ما هي الأخبار حسني بيك؟.

- آه يا سادة، عظامي تكسرت.

تغطى الغابة بمصائد الضباع، جميعها مؤشرة ومعروفة، حتى أن حسني بيك لم يعد يتجرأ على الدخول إلى الغابة، وعندما اقتنع بعدم فائدته، طلب نقله إلى مكان آخر.

قام أهل القرية بإرسال رسالة للقرويين في تلك القرية «حسني بيك» صفاته كذا وكذا وكذا.

أوقع قرويو هذه القرية حسني بيك في الشرك في اليوم الأول.

- أهلاً وسهلاً حسني بيك.

- أنقذوني يا سادة واقطعوا كل الغابة.

لم يستطع حسني بيك الاستمرار في هذه القرية، فانتقل إلى مكان آخر.

و كلما ذهب إلى مكان، كانت الرسائل تسبقه، لينصب له المصائد، في النهاية قدم استقالته ليعود إلى مسقط رأسه، بحجة أنه موطن أبيه. عاد إلى هنا لا أرض ولا أطيان، في حينه كانت بلدتنا محاطة بالغابات، خرج بفكرة عيد الشجرة، راح يكتب في الصحف، ويلقي الكلمات، وهكذا انتشر عيد الشجرة وأصبح تقليداً، عند حلول هذا العيد يتجه الناس إلى الغابات، فتخلع الأشجار من جذورها، لزرعها في هذه السبخة، دون النظر إلى الخلف وإلى ما حلّ بالشجرة التي زرعت، فالشجرة بحاجة لعناية وتربة معطاءة، في كل عام تزرع آلاف الأشجار وخلال أسبوع تجف وتسقط. فلو أن قطيعاً مؤلفاً من مئة ماعز، لما أتلفت الغابة كما أتلفها حسني بيك.

بعدما استمعت إليه سألته:

- لمَ يقوم بذلك؟

- يا سيدي الماعز عدو الغابة، لكنه بالنسبة له يبقى ملاكاً.

- وهل يقوم بذلك للاشيء؟

- ومن قال لك للاشيء، هذه التلال الجرداء التي تراها كانت غابات، في كل عيد شجرة يدفع بالمواطنين لاقتلاع أشجارها ليزرعها في هذه السبخة، وعلى التلال الجرداء، يبني بيتاً وبستاناً مستفيداً من

القانون الذي يقول «تمتلك أرضاً غير مستثمرة عندما تبني عليها»، وهكذا استملك جميع هذه التلال، فهو يقوم بانتزاع الأشجار من الغابات كي يبني عليها.

- حسناً، ولم لا تعارضونه، ألا تشفقون على هذه الغابات؟

يا روحي ومن سيعترض؟.. رجل أحدث عيداً جميلاً، لا أحد يشكو من عيد الشجرة.. في سياق ذلك أصبح لدينا بستاناً من خمسة عشر دونماً، شكوانا ليست من عيد الشجرة، بل من حسني بيك، فهو لم يترك غابة في البلدة إلا واستملكها.

الفهرس

من منشورات دار علاء الدين

- العرض الأخير
عزيز نيسين
- حكاية البغل العاشق
عزيز نيسين
- مجنون على السطح
عزيز نيسين
- خصيصاً للحمير
عزيز نيسين
- يساري انت أم يميني ؟!!
عزيز نيسين
- يسلم الوطن
عزيز نيسين
- ذكريات غيشا
آرثر غولدن
- الحب المتبادل بين الزوجين
البرتو مورافيا
- أرخبيل غولاغ
الكسندر سولجنيتسين
- مساء ذبول الوردة
اردال أوز
- خبز فوق الماء
اروين شو
- فيل الوالي
إيفو اندريش
- الحمامة
باتريك زوسكيند
- قرب النهر ابكي
باولو كويلهو
- محارب النور
باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
بريم ستوكر
- جاز
توني موريسون
- أخوية اليقظانين
جاك اتلي
- مشاهد من حياة كهنوتية
جورج اليوت
- النطع
جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
خوليو كورتاسار
- فصل الراحة
غور فيدال
- قليل من حرارة الشمس في الماء البارد
فرانسواز ساغان
- ٩٩ فرنكاً
فريدريك بيغبيدير
- لعبة حب مجنون
كريستين اوربان



هذا الكتاب

مجموعة قصصية للمبدع عزيز نيسين الذي يمثل أدبه الأدب الساخر المبني على المفارقة الجميلة والنقد اللاذع لقيم اجتماعية وسياسية، وبأسلوب فني رشيق يجعل القارئ أسير الكلمات التي تتقافز حروفها مدغدغة المشاعر وراسمة ابتسامات عريضة وضحكات طلقة، مستنداً على قاعدة مألوفة «شر البليّة ما يضحك».

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy